

على مائدة العبيد

٢

التوسل

مفهومة وأقسامه وحكمه

في الشريعة الإسلامية الفرية



تأليف

جعفر البخاري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التوسل : مفهومه و اقسامه و حكمه فى الشريعة الاسلاميه الغراء

كاتب:

جعفر سبحانى

نشرت فى الطباعة:

مشعر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٩	التوسل : مفهومه و اقسامه و حكمه فى الشريعة الاسلاميه الغرأ
٩	اشارة
٩	اشارة
١١	[قال الله تبارك وتعالى:]
١١	اشارة
١٩	١- التوحيد فى العبادة أساس دعوة الأنبياء
٢١	٢- البدعة فى الدين
٢١	اشارة
٢٥	التوسل لغة واصطلاحاً
٢٩	١ التوسل بأسمائه وصفاته
٣٣	٢ التوسل بالقرآن الكريم
٣٥	٣ التوسل بالأعمال الصالحة
٤٠	٤ التوسل بدعاء الرسول الأكرم
٤٧	٥ التوسل بدعاء الأخ المؤمن
٥٠	٦ التوسل بدعاء النبى فى حياته البرزخية
٥٠	اشارة
٥١	الأول: حياة الأنبياء والأولياء بعد انتقالهم إلى البرزخ:
٥٤	الثانى: الصلة بين الحياة الدنياوية والحياة البرزخية:
٥٤	اشارة
٥٥	١- النبى صالح يخاطب قومه الهالكين:
٥٦	٢- مخاطبة النبى شعيب قومه الهالكين:
٥٧	٣- أمر النبى بالتكلم مع الأنبياء:

- ٥٧ اشارة
- ٥٧ الأحاديث وإمكان الارتباط بالأرواح:
- ٦٠ الثالث: سيرة السلف الصالح في التوسل بدعاء النبي بعد رحيله:
- ٦٦ شبهات لا بد من الإجابة عليها
- ٦٦ اشارة
- ٦٧ الشبهة الأولى البرزخ مانع من الاتصال
- ٦٩ الشبهة الثانية: امتناع اسماع الموتى
- ٧٣ الشبهة الثالثة: انقطاع عمل الإنسان
- ٧٤ التلؤن في الاستدلال
- ٧٥ ٧ التوسل بالأنبياء والصالحين أنفسهم
- ٧٥ اشارة
- ٧٦ ١- توسل الضرير بنبي الرحمة
- ٧٩ إجابة على سؤال
- ٨٠ التوسل بذات النبي بعد رحيله
- ٨٢ مناقشة في سند الرواية
- ٨٤ سيرة الأمم في توسلهم بالذوات الطاهرة
- ٨٤ اشارة
- ٨٤ ١- استسقاء عبد المطلب بالنبي وهو رضيع
- ٨٤ ٢- استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام
- ٨٦ ٣- توسل الخليفة بعم النبي: العباس
- ٩٠ ٨ التوسل بحق الصالحين وحرمتهم ومنزلتهم
- ٩٠ اشارة
- ٩٢ ١- التوسل بحق السائلين
- ٩٣ ٢- التوسل بحق النبي وبحق من سبقه من الأنبياء

- ٩٦ ٣- توّسل آدم بحقّ النبي
- ٩٦ اشارة
- ٩٨ الشبهة الأولى
- ١٠١ الشبهة الثانية
- ١٠٣ ٩ التوسّل بمقام النبي ومنزلته عند الله
- ١٠٣ اشارة
- ١٠٧ خاتمة المطاف
- ١٠٧ اشارة
- ١٠٨ الآية الأولى
- ١١٠ الآية الثانية
- ١١٣ ١٠ التوسّل بالنبي متواتر إجمالاً
- ١١٣ اشارة
- ١١٤ ١- توّسل الأعرابي بالنبي نفسه
- ١١٤ اشارة
- ١١٥ دلالة الحديث:
- ١١٥ ٢- شعر صفيّة في رثاء النبي
- ١١٦ ٣- خبر العتيق
- ١١٦ ٤- خبر حاتم الأصم
- ١١٧ ٥- اللهم ربّ جبرئيل وميكائيل
- ١١٧ ٦- حديث السؤال بالأنبياء
- ١١٨ ٧- حديث دعاء حفظ القرآن
- ١١٨ ٨- حديث استفتاح اليهود على المشركين بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم
- ١١٩ ٩- توّسل الشافعي بآل البيت
- ١١٩ ١٠- استسقاء بلال بن حرث

١١٩	اشارة
١٢٠	تلك عشرة كاملة
١٢٠	ما أُلّف حول التوسل بقلم علماء الإسلام
١٢٢	كلام لابن حجر حول التوسل
١٢٦	فهرس المواضبع
١٢٩	تعريف مركز

التوسل : مفهومه و اقسامه و حكمه فى الشريعة الاسلاميه الغراء

اشاره

سرشناسه : سبحانى تبريزى جعفر، - ١٣٠٨
عنوان و نام پديدآور : التوسل : مفهومه و اقسامه و حكمه فى الشريعة الاسلاميه الغراء / تاليف جعفر السبحانى مشخصات نشر : نشر
مشعر، ١٣٧٤.
مشخصات ظاهرى : ص ١٢٠
فروست : (على مائده العقيدة ٢)
وضعيت فهرست نویسى : فهرست نویسى قبلى يادداشت : كتابنامه به صورت زیر نویس موضوع : توسل موضوع : توسل -- احاديث رده
بندى كنگره : BP٢٢٦/٦/س٢ت٩ ١٣٧٤
رده بندى ديوبى : ٢٩٧/٤٦٨
شماره كتابشناسى ملي : م٧٥-٢٥١
ص : ١

اشاره

ص: ٣

[قال الله تبارك وتعالى:]

إشارة

ص: ٤

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». المائدة/ ٣٥

ص: ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه وحده نستعين وعليه وحده نتوكل

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد رُسله، وخاتم أنبيائه وآله ومن سار على خطاهم وتبعهم بإحسان الى يوم الدين. يولى المسلمون أهميته كبرى للعقيدة الصحيحة لأنها تشكّل حجر الزاوية في سلوكهم ومنازاً يضيء دروبهم وزاداً لمعادهم. ولهذا كرس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الفترة المكية من حياته الرسالية نفسه لإرساء أسس التوحيد الخالص، ومكافحة الشرك والوثنية، ثم بنى عليها في الفترة المدنية صرح النظام الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي. ولهذا - ونظراً للحاجة المتزايدة - رأينا أن نقدم للأمة الإسلامية الكريمة دراسات عقائدية عابرة مستمدة من كتاب الله العزيز، والسنة الشريفة الصحيحة، والعقل السليم، وما اتفق عليه علماء الأمة الكرام، تُروى ظمناً العطشان، وتلبي حاجة المشتاق، وتساعد على إيقاظ الأمة، وتوحيد صفوفها، والله الموفق. معاونة التعليم والبحوث الإسلامية

ص: ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد رسله وخاتم أنبيائه محمد وآله الطاهرين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. تكتسب العقيدة الصحيحة أهمية كبرى في حياة المسلم، لأنها تشكل حجر الزاوية في سلوكه وتمثل ضوء طريقه، وزاد معاده. ولهذا كرس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الفترة المكية من حياته الرسالية في إرساء أسس التوحيد الخالص، ومكافحة الشرك والوثنية، ثم بنى عليها في الفترة المدنية صرح النظام الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي. ولهذا - ونظراً للحاجة المتزايدة - رأينا أن نقدم للأمة الإسلامية الكريمة وجبات اعتقادية عاجلة، مستمدة من كتاب الله العزيز، والسنة الشريفة الصحيحة، والعقل السليم الحصيف، وما اتفق عليه علماء الأمة الكرام، تروى ظمأ العطشان، وتلبي حاجة المشتاق، وتساعد على إيقاظ الأمة، وتوحيد صفوفها والله الموفق.

ص: ٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه وأفضل سفرائه محمد وآله الطاهرين وعلى عباد الله الصالحين. أمّا بعد: فقد خلق الله سبحانه العالم التكويني على أساس الأسباب والمسببات، فلكل ظاهرة في الكون سبب عادي يؤثر فيها بإذنه سبحانه، وليس للعلم والعالم التجريبي شأن سوى الكشف عن تلك الروابط الموجودة بين الظواهر الكونية، وكلّما تقدّم العلم في ميادين الكشف، تتجلى تلك الروابط بأعمق صورة لدينا والكلّ يدل على شيء وهو، أنه سبحانه خلق النظام الكوني على أساس وسائل وأسباب تتبني مسبباتها بتنظيم منه سبحانه إذ «هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً» والماء سبباً للحياة فالكل مؤثرات فيما سواه حسب

ص: ٨

مشيئته وإذنه، قال سبحانه: «وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم» (البقرة/ ٣٢) والباء في الآية بمعنى السببية والضمير يرجع إلى الماء، وقال أيضاً: «أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فتخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا تبصرون» (السجدة/ ٢٧)، فالآية صريحة في تأثير الماء على الزرع، وأنه سبحانه أعطى له تلك المقدره وكل من الأسباب جنود له سبحانه، قال: «وما يعلم جنود ربك إلا هو» (المدثر/ ٣١) فلو كانت الملائكة جنوداً لله تبارك وتعالى كما يقول سبحانه:

«فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنودٍ لم تروها» (التوبة/ ٤٠) فالأسباب العادية التي تعتمد عليها الحياة الجسمانية للإنسان، جنوده سبحانه في عالم المادة ومظاهر إرادته ومشيئته.

وهذا ليس بمعنى تفويض النظام لهذه الظواهر المادية، والقول بتأصلها في التأثير واستقلالها في العمل بل الكل، متدل بوجوده سبحانه، قائم به، تابع لمشيئته وإرادته وأمره.

هذا هو الذي نفهمه من الكون ويفهمه كل من أمعن النظر فيه، فكما أن الحياة الجسمانية قائمة على أساس الأسباب والوسائل، فهكذا نزول فيضه المعنوي سبحانه إلى العباد تابع لنظام خاص كشف عنه الوحي، فهدايته سبحانه تصل إلى الإنسان عن طريق ملائكته وأنبيائه ورسله وكتبه، فالله سبحانه هو الهادي، والقرآن أيضاً هو الهادي، والنبى الأكرم أيضاً هو الهادي ولكن في ظل إرادة الله سبحانه، قال سبحانه: «والله يريد الحق وهو يهدى السبيل» (الأحزاب/ ٤) وقال سبحانه: «إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم» (الإسراء/ ٦) وقال سبحانه في حق نبيه: «وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم» (الشورى/ ٥٢).

ص: ٩

فهدياء الله تعالى تصل إلى الإنسان عن طريق الأسباب والوسائل التي جعلها الله سبحانه طريقاً لها وإلى هذا الأصل القويم يشير الإمام الصادق عليه السلام في كلامه ويقول: «أبى الله أن تجرى الأشياء إلا بأسباب فجعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل سبب شرحاً» (١). فعلى ضوء هذا الأساس فالعالم المعنوي يكون على غرار العالم المادى فلأسباب سيادة وتأثير بإذنه سبحانه، وقد شاء الله أن يكون لها دور في كلتا النشأتين، فلا غرو لمن يطلب رضى الله أن يتمسك بالوسيلة، قال الله سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون» (المائدة/ ٣٥).

فالله سبحانه حثنا للتقرب إليه على التمسك بالوسائل وابتغائها، والآية دعوة عامة لا تختص بسبب دون سبب، بل تأمر بالتمسك بكل وسيلة توجب التقرب إليه سبحانه، وعندئذ يجب علينا التبع فى الكتاب والسنة، حتى نقف على الوسائل المقربة إليه سبحانه، وهذا مما لا يعلم إلا من جانب الوحي، والتنصيص عليه فى الشريعة، ولولا ورود النص لكان تسمية شيء بأنه سبب للتقرب، بدعة فى الدين، لأنه من قبيل إدخال ما ليس من الدين فى الدين.

ونحن إذا رجعنا إلى الشريعة نقف على نوعين من الأسباب المقربة إلى الله سبحانه:

النوع الأول: الفرائض والنوافل التى ندب إليها الكتاب والسنة، ومنها التقوى، والجهاد الواردين فى الآية، وإليه يشير على أمير

ص: ١٠

المؤمنين عليه السلام ويقول: «إنَّ أفضل ما توسل به المتوسِّلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمان به، وبرسوله، والجهاد في سبيله فإنَّه ذرورة الإسلام، وكلمة الإخلاص فإنَّها الفطرة، وإقام الصلاة فإنَّها الملة، وإيتاء الزكاة فإنَّها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنَّه جنة من العقاب، وحج البيت واعتماره فإنَّهما ينفيان الفقر، ويرحضان الذنب، وصله الرحم فإنَّها مثرة في المال، ومنسأة في الأجل، وصدقة السر فإنَّها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية فإنَّها تدفع ميتة السوء وصنائع المعروف فإنَّها تقى مصارع الهوان» (١)

غير أن مصاديق هذا النمط من الوسيلة لا تنحصر في ما جاء في الآية أو في تلك الخطبة بل هي من أبرزها.

النوع الثاني: وسائل ورد ذكرها في الكتاب والسنة الكريمة، وحثَّ عليها الرسول وتوسَّل بها الصحابة والتابعون وكلها توجب التقرب إلى الله سبحانه، وهذا هو الذي نطلبه في هذا الأصل حتى يعلم أن الوسيلة لا تنحصر في الفرائض والمندوبات الرائجة بل هناك وسائل للتقرب دلَّت عليها السنة، وهي التوسَّل بالنبى الأكرم على أشكاله المختلفة التي سنذكرها، فهذا على عليه السلام يقول في ذكر النبى صلى الله عليه وآله وسلم:

«اللهم أعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك نُزله، وشرِّف عندك منزله وآته الوسيلة وأعطه السناء والفضيلة واحشرنا في زمرة»

(٢)

فإذا وقفنا على أن النبى هو الوسيلة المقربة إلى الله، فتجب علينا

١-١ نهج البلاغة، الخطبة: ١١٠.

٢-٢ المصدر نفسه: الخطبة ١٠٦.

ص: ١١

مراجعة السنّة لنطلع على كيفية التوسّل به فهي تبين لنا تلك الكيفية.

فعلى من يطلب استجابته دعائه، أن يتوسّل إلى الله بأسباب جعلها الله سبحانه وسيلة لهذا المبتغى.

*** أخى العزيز: فقد عالجت فى هذه الرسالة الوجيزه مسأله التوسّل الذى قد أثارت فى بعض الأجواء قلقاً واضطراباً، ولو أنّ إخواننا رجعوا إلى كتاب الله وسنّة نبيّه بنظره فاحصه متجرده عن كل رأى مسبق لوجدوا فيهما بياناً شافياً، لا يدع شكاً لشاك ولا ريباً لمرتاب، وبما أنّ بعضهم - سامحه الله - ربّما يرمى المتوسّل بالتألّه للمتوسّل به، أو يعد عمله بدعه. وضعنا أمامك بحثاً موجزاً حول هذين الأصلين:

١- التوحيد فى العبادة، ٢- حرمة البدعه، ليقف القارئ على أنّ المتوسّل بالأسباب - ماديّه كانت أم معنويّه - يؤمن بدينك المبدأين أتمّ الإيمان، وأنّه مع إيمانه وتسليمه بهما يتوسّل بما سوغ فى الشريعه الإسلاميه التمسك به. نسأله سبحانه أن يرزقنا توحيد الكلمه، كما تفضّل علينا كلمه التوحيد إنّه بذلك قدير وبالإجابة جدير.

جعفر السبحاني

٤ رمضان المبارك

عام ١٤١٥ هـ

١- التوحيد فى العبادة أساس دعوة الأنبياء

ص: ١٢

التوحيد في العبادة يُشكّل أساس دعوة الأنبياء في جميع عهود الرسالة السماوية، والمقصود منه دعوة الإنسان إلى عبادة الله، وردعه عن عبادة غيره أيّاً كان.

فالتوحيد في العبادة، وتحطيم أغلال الشرك والوثنية، هو الحجر الأساس للتعاليم السماوية، فكأنّ الأنبياء والرسل لم يُبعثوا إلّا إلى هذا الهدف الوحيد وهو، تثبيت دعائم التوحيد ومكافحة الشرك بعامّة ألوانه، وأخصّ منها بالذكر، الشرك في العبادة.

لقد جاءت تلك الحقيقة في الذكر الحكيم بجلاء، إذ قال تعالى:

«ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت» (النحل / ٣٦).

وقال سبحانه: «وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلّا نوحى إليه أنّه لا إله إلّا أنا فاعبدون» (الأنبياء / ٢٥) وفي موضع آخر يصف القرآن الكريم التوحيد في العبادة: الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية إذ يقول: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبدُ إلّا إياه ولا نشرك به شيئا» (آل عمران / ٦٤).

إنّ القرآن الكريم يصوّر موقفَ المشرك في الحياة بالذی خرّ من السماء فلا- يكون مصيره إلّا طُعماً للصقور والنسور، أو ملقى في مكان سحيق، قال سبحانه: «ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق» (الحج / ٣١) فما هذا إلّا لأنّ المشرك اعتمد في الحياة على ما ليست له مسحة من الواقعية أو لمسة

ص: ١٣

من الصدق فاعتمد على المخلوق المحتاج، واتخذة عماداً في حياته، وزعم أنه ينفع ويضرّ مع أنه ليست له أية مقدرة لحفظ نفسه فضلاً عن صيانته عابده، فأشبه بمن خرّ من السماء فليس له أيّ صائن يصونه من السقوط أو يحفظه من شرور الطيور أو السقوط في مهاوى الأودية.

فنبى الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم حسب هذه الآيات ووفق ما وصلنا من حياته، كافح الشرك في العبادة بكل حول وقوة، وجعله السبيل إلى سائر دعواته، كما كافح سائر ألوانه وإن كان التركيز على الشرك في العبادة أكثر.

فالمسلم لا يدخل في حظيرة الإسلام إلا بالاعتقاد بهذا الأصل الذي لا يقبل التخصيص ولا التقييد، فالعبادة بمعناها الحقيقي، مختصة بالله سبحانه لا تعم غيره وإشراك الغير معه ظلم وتعدّ على حدود الله قال سبحانه حاكياً عن أحد عباده الصالحين: «يا بُنَيَّ لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلمٌ عظيم» (لقمان/ ١٣).

فعلى ضوء ذلك فكل عمل في الشريعة الإسلامية يجب أن ينطبق على هذا الأصل ولا يتعدّاه، حتى لو ورد في حديث، أو نقل عن إمام شيء يزاحم ذلك الأصل فهو كذب على النبي أو الإمام، وهو مرفوض يضرب عرض الجدار.

٢- البدعة في الدين

إشارة

وهناك أصل آخر له الأهمية الخاصة بعد ذلك الأصل وهو حرمة البدعة والتدخل فيما يرجع إلى الشريعة الإلهية من عند نفسه، وذلك لأجل حصر التشريع في الله سبحانه، وأنه ليس لأحد الدخول في تلك

ص: ١٤

الخطيرة، أعنى: خطيرة التشريع، وأنه مما يختص به سبحانه، فمن نازعه في التشريع وأدخل في شريعته ما ليس منه، فهو مبطل مبتدع، وفي الذكر الحكيم آيات كثيرة تُخصّص التشريع في الله سبحانه وتسلم ذلك الحق عن غيره، نشير إلى بعضها: قال سبحانه: «إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (يوسف / ٤٠) والمراد من الحكم، هو التشريع والتقنين، بقرينه قوله: «أمر ألا تعبدوا إلا إياه».

ويقول سبحانه: «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولّون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين» (المائدة / ٤٣). ترى أنه سبحانه يذم اليهود في إعراضهم عن التوراة وفيها حكم الله وتحكيم النبي الأكرم، وما هذا إلا لأن التشريع خاص بالله تعالى وليس لأحد في التشريع أي حقّ.

يقول سبحانه في ذم اليهود وأخبارهم حيث كانوا يعدلون عن حكم الله إلى حكم آخر طمعاً في الدنيا إذ ينددهم بقوله: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (المائدة / ٤٤).

وقال: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» (المائدة / ٤٥).

وقال: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» (المائدة / ٤٧).

فهذه الآيات ونظائرها، دليل على أنه ليس لأحد الحكم إلا وفق ما شرع الله، ومن خرج في حكمه عن إطار التشريع الإلهي فهو كافر وظالم وفاسق.

ص: ١٥

وهناك كلمة قيّمة عن أحد أئمة أهل البيت محمد الباقر عليه السلام إذ يقول: «الحكم حكمان: حكم الله، وحكم أهل الجاهلية فمن أخطأ حكم الله بحكم أهل الجاهلية» (١).

إن الآيات الدالة على ذم التشريع والتدخل في شؤون الله تعالى كثيرة تجمعها البدعة في الدين، من غير فرق بين الإفتاء بما خالف الكتاب والسنة أو إدخال ما لم يرد فيها ورميه بالله، فالمعنى الجامع للبدعة هو الافتراء على الله ورسوله ونشر المفترى بين الأمة باسم الدين، يقول سبحانه: «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون» (الأنعام / ٢١).

ترى أنه سبحانه يُلَقِّنُ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ أَنْ يَجِيبَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اقْتَرَحُوا عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِغَيْرِ هَذَا الْقُرْآنِ أَوْ يَبْدُلَهُ فَيَقُولُ: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (يونس / ١٥).

وقال الرسول: «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَإِنَّ أَفْضَلَ الْهُدَىٰ هُدَىٰ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ» (٢).

يقول ابن حجر في تفسير قوله: «وشرُّ الأمور محدثاتها»:

«المحدثات جمع محدثة، المراد ما أحدث وليس له أصل في الشرع، ويسمى في عرف الشرع بدعة، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس بدعة» (٣).

١- ١ الوسائل: ١٢، الباب ٥ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٦.

٢- ٢ العسقلاني: فتح الباري في شرح البخاري: ١٣ / ١٥٣.

٣- ٣ العسقلاني: فتح الباري في شرح البخاري: ١٣ / ١٥٣.

ص: ١٦

فهذان الأصلان اللذان أشرنا إليهما على وجه الإيجاز، مما اتفقت عليها الأمة الإسلامية جمعاء على اختلاف مذاهبهم في الأصول والفروع، ولا تجد حكيماً أو متكلماً أو فقيهاً ينسب بنت شفه على خلاف ذلك، فكيف لا وشعار المسلمين في جميع العصور على أن لا معبود إلا إياه، ولا حاكم ومشرع إلا هو.

فالمسلم يتلو كل يوم قوله: «إياك نعبد وإياك نستعين» (الحمد / ٥).

كما يتلو قوله سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميعٌ عليم» (الحجرات / ١). وقوله سبحانه: «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً» (الأحزاب / ٣٦).

وقوله سبحانه: «إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» (الأنعام / ١٥٣). فالمبتدع هو المشرع المعرض عن سبيل الله، التابع لغير سبيله، المفترق جماعة المسلمين عن سبيله سبحانه، لا بل هو المفترى الكذاب الذي يفترى على الله سبحانه ويقترف أفضح المعاصي فمصيره إلى النار.

*** إذا وقف على موقف الأصلين فالهدف هو تبين مفهوم التوسل وبيان أقسامه وأحكامه في ضوء الكتاب والسنة ولا تتخطاهما قيد شعرة، فما سوغه الكتاب والسنة النبوية، جعلناه في قائمة التوسل المشروع، وما خالفهما، تركناه في قائمة الممنوع والمرفوض،

ص: ١٧

وسيوافيك أن الممنوع منه، ما يمسّ كرامة التوحيد في العبادة، أو يكون تدخلاً في أمر التشريع، ومصدّقاً للبدعة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد اعتمدنا في فهم أحكامه، على غرّ الآيات ومحكماتها، وصحاح السنّة وحسانها والسيره الرائجة بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان التي نكشف بها عن وجود دليل عليه وصل إليهم ولم يصل إلينا. ولم نتخذ في ذلك موقفاً مسبقاً حتى نُخضع الأدلة عليه، بل اتبعنا مرامي الكتاب ومقاصد السنّة.

التوسّل لغة واصطلاحاً

التوسّل من وسلت إلى ربّي وسيلة: عملتُ عملاً أتقربُ به إليه، وتوسّلت إلى فلان بكتاب أو قرابه، أي تقربتُ به إليه (١).

وقال الجوهرى في الصحاح: الوسيلة ما يتقربُ به إلى الغير والجمع: الوُسُل والوسائل (٢).

ونحن في غنى عن تحقيق معنى الوسيلة في اللغة، لأنها من المفاهيم الواضحة لدينا وحقيقتها لا تتجاوز عن اتّخاذ شيء ذريعة إلى أمر آخر يكون هو المقصود والمبتغى وهي تختلف حسب اختلاف المقاصد.

فمن ابتغى رضی الله تبارك وتعالى يتوسّل بالأعمال الصالحة التي بها يكتسب رضاه، ومن طلب استجابة دعائه يتوسّل بشيء جعل

١-١ الخليل: ترتيب المعين، مادة «وسل».

٢-٢ الجوهرى: الصحاح، ج ٥، مادة «وسل».

ص: ١٨

في الشريعة وسيلة لها، ومن أراد زيارة بيت الله الحرام يتوسّل بما يوصله إليها، فوضوح معناه يبعثنا إلى أن نترك نقل أقوال اللغويين في ذلك المضمار وإن كانت أكثر كلماتهم في المقام متماثلة.

والمقصود منه في المقام، هو أن يقدم العبد إلى ربه شيئاً، ليكون وسيلة إلى الله تعالى لأن يتقبّل دعاءه ويجيبه إلى ما دعا، وينال مطلوبه، مثلاً إذا ذكر الله سبحانه بأسمائه الحسنی وصفاته العليا ومجده وقده وعظمه، ثم دعا بما بدا له، فقد اتخذ أسماءه وسيلة لاستجابة دعائه ونيل مطلوبه، ومثله سائر التوسّلات، والتوسّل بالأسباب في الحياة، أمر فطري للإنسان، فهو لم يزل يدق بابها ليصل إلى مسبباتها، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن تجرى الأشياء إلّا بأسباب فجعل لكل شيء سبباً» (١).

إنّ الوسيلة إذا كانت وسيلة عادية للشئ وسبباً طبيعياً له، فلا يشترط فيها إلّا وجود الصلة العادية بين الوسيلة والمتوسّل إليه، فمن يريد الشبع فعليه الأكل فلا يُريحه شرب الماء، إذ لا صلة بين شرب الماء، وسدّ الجوع، فالعقلاء في حياتهم الدنيوية ينتهجون ذلك المنهج بوازع فطري، أو بعامل تجريبي، نرى أنّ ذا القرنين عندما دُعي إلى دفع شرّ يأجوج ومأجوج اللذين كانوا يأتون من وراء الجبل ويفسدون ويقتلون ويغيرون، لبى دعوتهم وتمسك بالسبب الطبيعي القويم الذي يدفع به شرّهم فخاطبهم بقوله: «آتونى زير الحديد حتى إذا ساوى بين الصّدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليهم قِطراً* فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً» (الكهف/ ٩٦-٩٧).

ص: ١٩

ففى هذا الموقف العصبى توّسل ذوالقرنين - ذلك الإنسان الإلهى - بسبب طبيعى إذ أنّه وقف على الصلّة بين الوسيلة وما يهدف إليها، وهو سدّ الوديان بقطع الحديد حتى إذا سوى بين الجبلين أمر الحدّادين أن ينفخوا فى نار الحديد التى أوقدت فيه حتى جعله ناراً، وعند ذلك قال: اتّونى نحاساً مذاباً أو صفراً مذاباً، حتى أصبّه على السد بين الجبلين وينسد بذلك النقب ويصير جداراً مصمتاً، فكانت حجارتة الحديد وطنينه النحاس الذائب.

ففى المورد وأضرابه التى بنيت عليها الحياة الإنسانية فى هذا الكوكب، لا يشترط بين الوسيلة والهدف سوى الرابطة الطبيعية أو العادية التى كشف عنها العلم والتجربة وأما التوسّل فى الأمور الخارجة عن نطاق الأمور العادية، فيما أنّ التعرّف على أسبابه خارج عن إطار العلم والتجربة بل يُعدّ من المكنونات الغيبية، فلا يقف عليها الإنسان إلّا عن طريق الشرع وتنبية الوحي، وبيان الأنبياء والرسل وما ذاك إلّالأنهم هم الذين يرفعون الستار عن وجه الحقيقة ويصرّحون بالوسيلة ويبيّنونه بأنّ هناك صلّة بينها وبين ما يبغيه الإنسان المتوسّل. وهذا الأصل يبعثنا إلى أن لا نتوسل بشيء فيما نبتغيه من رضى الربّ، وغفران الذنوب واستجابة الدعاء ونيل المنى، إلّا عن طريق ما عيّنه الشارع وصرّح بأنّه وسيلة لذلك الأمر، فالخروج عن ذلك الإطار يسقطنا فى مهاوى التشريع ومهالك البدع التى تعرّفت على مضاعفاتها.

فالمسلمون سلفهم وخلفهم، صحابيّهم وتابعيّهم، والتابعون لهؤلاء بإحسان فى جميع الأعصار ما كانوا يخرجون عن ذلك الخط الذى رسمناه، فما ندب إليه الشرع فى مجال التوسّل يأخذون به، وما لم

ص: ٢٠

يذكر، أو نهى عنه يتركونه، ولا اعتبار بالبدع المحدثه التي ما أنزل الله بها من سلطان.
وها نحن نذكر عليك التوسّلات المشروعه التي ندب إليها الشرع، وحثّ عليها النبي الأكرم وخلفاؤه مجتنبين عن الإسهاب في الكلام،
مقتصرين على اللبّ تاركين القشر.

١ التوسل بأسمائه وصفاته

أمر الله سبحانه عباده بدعائه بأسمائه الحسنى وقال تعالى: «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون» (الأعراف / ٨٠).

إن الآيه تصف أسماءه كلها بالحسنى لحسن معانيها، من غير فرق بين ما يرجع إلى صفات ذاته كالعالم والقادر، والحي. وما يرجع إلى صفات فعله كالخالق والرازق والمحیی والممیت، ومن غير فرق بين ما يفيد التنزيه ورفع النقص كالغنى والقُدوس، وما يعرب عن رحمته وعفوه كالغفور والرحيم، فعلى المسلم دعاؤه سبحانه بها فيقول: يا الله يا رحمن يا رحيم، يا خالق السماوات والأرض، يا غافر الذنوب ويا رازق الطفل الصغير. وترك عمل الذين يعدلون بأسماء الله

ص: ٢٢

تعالى عما هي عليه فيسمون بها أصنامهم بالزيادة والنقصان، فيسمون أصنامهم باللات والعزى أخذاً من الله العزيز، سيجزون ما كانوا يعملون في الآخرة.

فعندما يذكره العبد بأسمائه التي تضمّت كل خير وجمال، ورحمة ومغفرة وعزّة وقدره، ثم يعقبه بما يطلبه من مغفرة الذنوب وقضاء الحوائج فيستجيبه سبحانه، وقد دلّت على ذلك، الآثار الصحيحة التي نذكر منها ما يلي:

١- أخرج الترمذي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد فقال النبي: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى» (١).

والحديث تضمّن بيان الوسيلة، والتوسّل بالأسماء، وإن لم يأت فيه الغرض الذي لأجله سأل الله تعالى بأسمائه.

٢- عن أبي هريرة قال: جاءت فاطمة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسأله خادماً، فقال لها: «قولي: اللهم ربّ السماوات السبع، وربّ العرش العظيم، ربّنا وربّ كل شيء ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن، فالحبّ والنوى، أعوذ بك من شرّ كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني

١- ١ الترمذي: الصحيح: ٥/ ٥١٥ برقم ٣٤٧٥، كتاب الدعوات، الباب ٦٥ من كتاب جامع الدعوات عن النبي.

ص: ٢٣

من الفقر (١).

٣- وأخرج أحمد والترمذى عن أنس بن مالك، أنه كان مع رسول الله جالساً ورجل يصلى، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، أنت المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حيّ يا قيوم، فقال النبي: «تدرون بم دعا الله؟ دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى» (٢).

وفى روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام نماذج من هذا النوع من التوسل يقف عليها السابر فى رواياتهم وأحاديثهم.

٤- فقد روى الإمام الرضا عليه السلام عن جدّه محمد الباقر عليه السلام أنه كان يدعو الله تبارك وتعالى شهر رمضان بدعاء جاء فيه: «اللهم إني أسألك بما أنت فيه من الشأن والجبروت، وأسألك بكلّ شأن وحده وجبروت وحدها، اللهم إني أسألك بما تجيبني به حين أسألك فأجبنى يا الله» (٣).

روى الشيخ الطوسى فى مصباحه عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام دعاءً باسم دعاء السمات مستهله:

«اللهم إني أسألك باسمك العظيم الأعظم، الأعزّ الأجلّ الأكرم، الذى إذا دُعيتَ به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمة، انفتحت، وإذا دُعيتَ به على مضايق أبواب الأرض للفرج، انفرجت، وإذا دعيت به على العسير ليسر تيسرت ...» (٤).

١- ١ الترمذى: الصحيح: ٥/ ٥١٨ برقم ٣٤٨١، كتاب الدعوات، الباب ٦٨ من كتاب جامع الدعوات.

٢- ٢ الترمذى: الصحيح: ٥/ ٥٤٩- ٥٥٠ برقم ٣٥٤٤، الباب ١٠٠ من كتاب الدعوات.

٣- ٣ السيد ابن طاووس الحلى: الإقبال، ص ٣٤٨، ط عام ١٤١٦.

٤- ٤ الطوسى: مصباح المتعجد، ص ٣٧٤.

ص: ٢٤

إنّ ثناء الله وتقديسه ووصفه بما وصف به في كتابه وسنّه نبيه، يوجد أرضيةً صالحهً لاستجابة الدعاء، ويكشف عن استحقاق الداعي لرحمته وعفوه وكرمه. وبما أنّ هذا القسم من التوسّل اتفقت عليه الأمة سلفها وخلفها ولم يذكر فيه أيّ خلاف فلتتصر فيه بهذا المقدار.

ص: ٢٥

٢ التوسّل بالقرآن الكريم

إنّ الإنسان مهما كان مبدعاً في الوصف والتعبير، لا يستطيع أن يصف كلام الله العزيز بمثل ما وصفه به سبحانه، فقد وصف هو كتابه بأنّه نور، وكتاب مبين، وهدى للمتّقين، نزل بالحق تبيّناً لكل شيء، إلى غير ذلك من المواصفات الواردة فيه. وكتابه سبحانه، فعله، فالتوسّل بالقرآن والسؤال به، توسّل بفعله سبحانه ورحمته التي وسعت كل شيء ومع ذلك كلّه يجب على المتوسّل، التحقّق من وجود دليل على جواز هذا النوع من التوسّل، لما عرفت أنّ كل ما يقوم به المسلم من التوسّلات يلزم أن لا يخذش أصل التوحيد وحرمة التشريع، ومن حسن الحظ ترى وروده في الشرع. روى الإمام أحمد، عن عمران بن الحصين، أنّه مرّ على رجل

ص: ٢٦

يقصّ، فقال عمران: إنا لله وإنا إليه راجعون سمعت رسول الله يقول:

«اقرأوا القرآن واسألوا الله تبارك وتعالى به قبل أن يجيء قوم يسألون به الناس» (١). فعموم لفظ الحديث يدل على جواز سؤال سبحانه بكتابه المنزل ما شاء من الحوائج الدنيوية والأخروية.

والإيمان في الحديث يرشدنا إلى حقيقته واسعته وهي جواز السؤال بكل من له عند الله منزلة وكرامة، وما وجه السؤال بالقرآن إلا لكونه عزيزاً عند الله، مكرماً لديه، وهو كلامه وفعله، ونفس ذاك متحقق في رسوله الأعظم وأوليائه الطاهرين عليهم سلام الله أجمعين.

وورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه يستحب في ليلة القدر أن يفتح القرآن فيقول: «اللهم إني أسألك بكتابك المنزل وما فيه، وفيه اسمك الأكبر وأسماؤك الحسنى وما يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النار» (٢).

١- الإمام أحمد: المسند: ٤/ ٤٤٥. ورواه في كنز العمال عن الطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان، لاحظ ج ١، ص ٦٠٨ برقم ٢٧٨٨.

٢- ابن طاووس الحلّي: الإقبال، ص ٤١. رواه حرير بن عبد الله السجستاني عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

٣ التوسل بالأعمال الصالحة

إذا كان التوسل بمعنى تقديم شيء إلى ساحة الله ليستجيب دعاءه، فلا شك في أن العمل الصالح أحسن شيء يتقرب به الإنسان إلى الله تعالى، وأحسن وسيلة يتمسك بها فتكون نتيجة التقرب هي نزول رحمته عليه وإجابة دعائه، وفي بعض الآيات الكريمة تلميح إلى ذلك، وإن لم يكن فيها تصريح إلا أن السنة النبوية صرحت بذلك، أما الآيات فنأتي بنموذجين منها:

١- «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم* ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم» (البقرة/ ١٢٧-١٢٨).

ص: ٢٨

ترى أن إبراهيم وولده الحليم قدما إلى الله تبارك وتعالى وسيلة وهي بناء البيت، فعند ذلك طلبا من الله سبحانه عدّة أمور تجمعها الأمور التالية:

تقبل منا، واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا.

والآية إن لم تكن صريحة فيما نبتغيه غير أن دعاء إبراهيم في الظروف التي كان يرفع فيها قواعد البيت مع ابنه، ترشدنا إلى أن طلب الدعاء في ذلك الظرف، لم يكن أمراً اعتباطياً، بل كانت هناك صلة بين العمل الصالح والدعاء، وأنه في قرار نفسه تمسك بالأول ليستجيب دعاه.

٢- قوله سبحانه: «الذين يقولون ربنا إننا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار» (آل عمران / ١٦٩).

ترى أنه عطف طلب الغفران بالفاء على قوله: «ربنا إننا آمنّا»، ففاء التفريع تعرب عن صلة بين الإيمان وطلب الغفران. وأنت إذا سبرت الآيات الكريمة تقف على نظير ذلك فكلها من قبيل التلميح لا التصريح، غير أن في السنة النبوية تصريح على أن ذكر العمل الصالح الذي أتى به الإنسان لله تبارك وتعالى، يثير رحمته، فتنزل رحمته على عبده ويستجاب دعاؤه، وقد روى الفريقان القصة التالية وفيها غنى وكفاية:

روى البخارى عن ابن عمران عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بينما ثلاثة نفر ممّن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنّه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلّا الصدق،

ص: ٢٩

فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه.

فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمَل لي على فرق من أُرز، فذهب وتركه، وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أنني اشتريت منه بقرًا، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت:

اعمد إلى تلك البقر فسقها، فقال لي: إنما لي عندك فرق من أُرز، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق، فساقها، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك، ففرج عنا، فانساحت عنهم الصخرة.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي فأبطأت عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا، وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، فكنت لا-أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيسبتكنا لشربتهما، فلم أزل انتظر حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنه عم من أحب الناس إلي وأنى راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت، فأتيها بها، فدفعتها إليها، فأمكننتي من نفسها، فلما قعدت بين رجلها فقالت: اتق الله ولا تنص الخاتم إلا بحقه، فقامت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا» (١).

١-١ البخاري: الصحيح: ١٧٣/٤، كتاب الأنبياء، الباب ٥٣؛ ورواه في كتاب البيوع، الباب ٩٨، واللفظ لكتاب الأنبياء.

ص: ٣٠

لم تكن الغاية من تحديث النبي بما ذكر إلّا تعليم أُمته حتى يتّخذوا ذكر العمل الصالح وسيلة لاستجابة دعوتهم. ولو كان ذلك من خصائص الأمم الماضية لصرّح بها. وقد رواه الفريقان، باختلاف في اللفظ.

٣- روى البرقي أحمد بن خالد (ت ٢٧٤ هـ) في محاسنه، عن عبد الرحمن ابن أبي نجران، عن المفضل بن صالح، عن جابر الجعفي، يرفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خرج ثلاثة نفر يسيحون في الأرض، فبينما هم يعبدون الله في كهف في قلّة جبل حتى بدت صخرة من أعلى الجبل حتى التقت باب الكهف، فقال بعضهم لبعض: عباد الله والله ما ينجيكم ممّا وقعتم إلّا أن تصدقوا الله، فهلمّوا ما عملتم لله خالصاً، فأنما أسلمتم بالذنوب.

فقال أحدهم: اللهم إن كنت تعلم أنّي طلبت امرأة لحسنها وجمالها، فأعطيت فيها مالاً ضخماً، حتى إذا قدرت عليها وجلست منها مجلس الرجل من المرأة وذكرت النار، فقامت عنها فزعاً منك، اللهم فارعنا هذه الصخرة، فانصدعت حتى نظروا إلى الصدع. ثم قال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنّي استأجرت قوماً يحرثون كل رجل منهم بنصف درهم، فلمّا فرغوا أعطيتهم أجورهم، فقال أحدهم: قد عملت عمل اثنين والله لا آخذ إلّا درهماً واحداً، وترك ماله عندي، فبذرت بذلك النصف الدرهم في الأرض، فأخرج الله من ذلك رزقاً، وجاء صاحب النصف الدرهم فأراد، فدفعت إليه ثمن عشرة آلاف، فإن كنت تعلم أنّما فعلته مخافة منك فارعنا هذه الصخرة، قال: فانفرجت منهم حتى نظر بعضهم إلى بعض.

ص: ٣١

ثم إن الآخر قال: اللهم إن كنت تعلم أن أبي وأمي كانا نائمين، فأتيتهما بقعب من لبن، فخفت أن أضعه أن تمج فيه هامة، وكرهت أن أوظفهما من نومهما، فيشق ذلك عليهما، فلم أزل كذلك حتى استيقظا وشربا، اللهم فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأرفع عنا هذه الصخرة، فانفرت لهم حتى سهل لهم طريقهم، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من صدق الله نجا» (١).

٤- وقال الإمام الطبرسي: أصحاب الرقيم هم نفر الثلاثة الذين دخلوا في غار، فانسد عليهم، فقالوا: ليدع الله تعالى كل واحد منا بعمله حتى يفرج الله عنا، ففعلوا، فنجاهم الله. رواه النعمان بن بشر مرفوعاً (٢).

ولعل فيها غنى وكفاية ومن أراد التبسط فعليه السير في غضون الروايات.

١- ١ نور الثقلين: الجزء ٣ في تفسير قوله: «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» الكهف / ٩ نقلًا عن محاسن البرقي في تفسير الآية.

٢- ٢ الطبرسي: مجمع البيان: ٣ / ٤٥٢.

ص: ٣٢

٤ التوسّل بدعاء الرسول الأكرم

إنّ للنبي الأكرم مكانة مرموقة عند ربّه ليس لأحدٍ مثلها، فهو أفضل الخلق، وقد بلغت عناية القرآن الكريم ببيان نواح من مناقبه إلى حد لا ترى مثل ذلك إلّا في حق القليل من أنبيائه، وربما يطول بنا الكلام إذا قمنا بعرض جميع الآيات الواردة في حقّه، وإنّما نشير إلى بعضها.

فقد أشار الذكر الحكيم إلى مكانته المرموقة ولزوم توقيره وتكريمه وأنّه لا يصلح دعاؤه كدعاء البعض للبعض بقوله سبحانه: «يا أيّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون» (الحجرات / ٢) وقال سبحانه أيضاً: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً» (النور / ٦٣).

ص: ٣٣

وإلى كماله الرفيع وإمامته وكونه قدوة وأسوة للمؤمنين يتأسون به في قيمه ومثله العليا، بقوله سبحانه: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً» (الأحزاب / ٢١).

وإلى عظمته وكرامته عند الله بحيث يصلّى عليه سبحانه وملائكته فأمر المؤمنين أن يصلّوا عليه بقوله: «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً» (الأحزاب / ٥٦).

وإلى صفاء نفسه وقوة روحه وجمال خلقه بقوله: «إنك لعلی خلقٍ عظیم» (الشعراء / ١٣٧).

وإلى عكوفه على عبادة ربه وتهجده في الليل وسهره في طريق طاعة الله بقوله: «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك» (المزمل / ٢٠).

وإلى غزارة علمه بقوله: «وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً» (النساء / ١١٣).

وإلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم أحد الأمانين في الأرض بقوله: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» (الأنفال / ٣٣).

قد بلغت كرامة الرسول - عند الله - إلى حدّ يتلو اسمه، اسم الله وينسب إليهما فعل واحد ويقول: «وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة» (التوبة / ٩٤).

وقال سبحانه: «من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً» (الأحزاب / ٧١).

وقال الله سبحانه: «وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله» (التوبة / ٧٤).

ص: ٣٤

إلى غير ذلك من الآيات التي اقترن فيها اسم نبيه إلى اسمه سبحانه ونسب إليهما فعل واحد وشهدت بكرامته عند الله وقربه منه، فإذا كانت هذه منزلته عند الله، فلا يرد دعاؤه، وتستجاب دعوته، فيكون دعاء مثل تلك النفس غير مردود، والتمسك بدعائه متمسكاً بركن وثيق وعماد رصين، ولأجل تلك الخصوصية نرى أنه سبحانه يأمر المذنبين من المسلمين إلى التمسك بذيل دعائه، ويأمرهم بأن يحضروا الرسول الأعظم ويستغفروا الله في مجلسه ويسألونه أن يستغفر لهم أيضاً، فكان استغفاره لهم سبباً لنزول رحمته وقبوله توبتهم، قال سبحانه: «وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» (النساء / ٦٤).

نرى أنه سبحانه في آية أخرى يندد بالمنافقين بأنه، إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله، لؤوا رؤوسهم، يقول سبحانه: «وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لؤوا رؤوسهم ورأيهم يصدّون وهم مستكبرون» (المنافقون / ٥).

وما هذا إلا لأن دعاء الرسول دعاء مستجاب، ودعوته مقبولة، واستغاثته مستجابة، لأنه نابع من نفس طاهرة مؤمنة راضية مرضية. إن من الظلم الواضح تسوية دعاء النبي بسائر المسلمين والتعبير عن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم بدعاء الأخ المؤمن! وجعل الجميع تحت عنوان واحد، فإنّ لدعاء الأخ المؤمن مقاماً رفيعاً، ولكن أين هو من دعاء الرسول؟! إنّ التوسّل بدعاء الإنسان الأمثل كان رائجاً في الرسالات السابقة،

ص: ٣٥

نرى أنّ أبناء يعقوب بعدما كُشِفَ أمرهم وبان ظلمهم توسّلوا بدعاء أبيهم النبي وقالوا له: «يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّنا كنّا خاطئين» قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّّه هو الغفور الرحيم» (يوسف / ٩٧-٩٨).

ففي هذه الآيات دلالة واضحة على أنّ رحمة الله الواسعة تارة تنزل على العبد مباشرة وبدون واسطة، وأخرى تنزل على طريق أفضل خلائقه وأشرف رسله، بل مطلق رسله وسفرائه.

وفي ذلك دلالة على وهن ما يلوكه بعض الناس ويقولون: إنّه سبحانه أعرف بحال عبده وأقرب إليه من حبل الوريد يراه ويسمع دعاءه، فلا حاجة لتوسط سبب والتوسّل بمخلوق و...، هذه الكلمات تصدر عمّن ليس له إمام بالقرآن الكريم ولا بالسنة النبوية ولا بسيرة السلف الصالح إذ ليس الكلام في علمه سبحانه، بل الكلام في أمر آخر وهو أنّ دعاء الإنسان الظالم لنفسه ربما لا يكون صاعداً إلى الله تبارك وتعالى ومقبولاً عنده، ولكنّه إذا ضمّ إليه دعاء الرسول أصبح دعاؤه مستجاباً وصاعداً إليه سبحانه. وللشيخ محمد الفقى - من علماء الأزهر الشريف - كلام في المقام نأتى بملخصه.

لقد شرف الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأسمى آيات التشريف، وكرمه بأكمل وأعلى آيات التكريم، فأسيغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وتوجه بأعظم أنواع التيجان قدراً وذكراً، وأرفع الأكاليل شأناً وخطراً. فذكر منزلته منه جلّ شأنه حياً وميتاً في قوله تعالى: «إنّ الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً» فأى تشريف أرفع وأعظم من صلاته سبحانه وتعالى هو وملائكته عليه صلى الله عليه وآله وسلم؟ وأى

ص: ٣٦

تكريم أسمى بعد ذلك من دعوة عباده وأمره لهم بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم؟ ولم يقف تقدير الله تعالى له عند هذا التقدير الرائع، بل هناك ما يدعو إلى الإعجاب ويلفت الأنظار إلى تعظيم على جانب من الأهمية، ألم تر في قوله تعالى: «لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون» ما يأخذ بالألباب ويدهش العقول، فقد أقسم سبحانه وتعالى بنبيه في هذه الآية:

«وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» قال ابن عباس رضى الله عنه: ما خلق الله ولا ذراً ولا برأ نفساً أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

وما سمعت أنه تعالى أقسم بحياة أحد غيره، والقرآن الكريم تفيض آياته بسمو مقامه، وتوحى بعلو قدره، وجميل ذكره، فقد جعل طاعته صلى الله عليه وآله وسلم طاعة له تعالى وقوله عز من قائل: «من يطع الرسول فقد أطاع الله» وعلق حبه تعالى لعباده على أتباعه صلى الله عليه وآله وسلم فيما بعث به وأرسل للعالمين، إذ يقول سبحانه: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله».

ومما يدل على مبلغ تقديره، ومدى محبة الله تعالى، وتشريفه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه» الآية، قال على رضى الله عنه: «لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله عليه وآله وسلم لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد».

ففي ملازمة جبريل له صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى بيت المقدس أكبر مظهر من مظاهر الشرف والفخر، وأسمى آية من آيات التقدير للرسول

ص: ٣٧

الأعظم في حياة الأمم وتأريخها. فهذه الآيات التي قصصتها وجتتكم بها وإن كانت كلّها بصائر وهدى ورحمة لقوم يؤمنون لا أرى مانعاً من ذكر ما عداها، ففيها تنبيه الغافلين إلى مزيد من النظر فيما عساه أن يقنعهم ويهديهم إلى الإيمان بما جاءت به الآيات البينات، وما يوحى به الدين وتعاليمه القويمه، فمن روائع ما يتمتع به من العظمة الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم عند بدء الدعاء وختمه، فإنّ في ذلك القبول والاستجابة، فقد صحّ عن عمر وعليّ - رضی الله عنهما - أنّهما قالاً لرجل دعا ولم يصلّ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يرفع ولا تفتح له الأبواب حتى يصلّي الداعي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومثل هذا لا يقال من قبيل الرأي فهو في حكم المرفوع، بل قد ثبت هذا مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأخيراً قد دلّ قوله تعالى: «ورفعنا لك ذكرك» على علو مكانته وجليل قدره وعظم شأنه، إذ المعنى في ذلك أنّنا قرنا اسمك باسمنا، وجعلنا الإيمان لا يتحقّق إلّا بالنطق بالشهادتين، وغير ذلك من براهين الشريعة وأدلتها التي لا تحصى ولا يمكن أن تستقصى وإليك ما قاله حسان بن ثابت صاحب الرسول وشاعره:

اغرّ عليه للنبوّة خاتم من الله من نور يلوح ويشهد

وضمّ الإله اسم النبيّ إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشقّ له من اسمه ليُجلّه فذوالعرش محمود وهذا محمد (١)

إنّ السبب الواقعي لاستجابة دعائه إنّما هو روحه الطاهرة ونفسه

١-١ محمد الفقي: التوسّل والزيارة ص ١٥٦ - ١٦٠، وقد أورد في بحثه كثيراً من الآيات التي تشهد على عظمة رسول الله ومكانته وقربه وقد لخصنا كلامه.

ص: ٣٨

الكريمة وقربها من الله سبحانه، وهي التي تضيف للدعاء أثر التأثير وتجعله صاعداً ومدعماً لدعاء الغير.
نعم هناك كلام في اختصاص ذلك الأمر بحياة النبي الجسمانية، أو يعم حياته البرزخية التي فيها يُرزق ويفرح ويستبشر، فهناك من يخص الآية بحياته الجسمانية بحجة وروده فيها، ولكن الأدلة التي سنبيها توقفك على جلى الحال، فانتظر ...

٥ التوسل بدعاء الأخ المؤمن

التوسل بدعاء الأخ المؤمن تمسك بالسبب الذي جعله الله سبحانه سبباً لاستجابة الدعاء، وقد دلت الآيات على أن الملائكة يستغفرون للمؤمنين آمنوا، وأن المؤمنين اللاحقين يستغفرون للسابقين، وهذا يدل على أن دعاء الأخ في حق أخيه، أمر مرغوب ومطلوب ومستجاب، فإذا كان كذلك فعلى المذنب أن يتوسل بهذا السبب المشروع ويطلب من أخيه الدعاء له، قال سبحانه: «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للمؤمنين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم» (غافر / ٧).

وقال سبحانه: «الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا

ص: ٤٠

ولإخواننا الذين سبقونا في الإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم» (الحشر / ٥٩).
فدعاء حملة العرش واللاحقين من المؤمنين سبب صالح لإجابة الدعاء، فعلى المسلم الواعي التمسك بمثل هذا السبب وطلب الدعاء منهم.

وفي السنة الشريفة ما يدل على ذلك، روى مسلم والترمذي عن عبد الله عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله يقول: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا على فأنه من صلى على صلاة، صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فأنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» (١).

فهذا الحديث يدل بظاهرة على أن الرسول يتوسل إلى الله تعالى بدعاء أمة له، أن يؤتية الوسيلة والمقام المحمود في الجنة ويكون جزاؤه شفاعته في حقهم. فإذا كان هذا حال النبي فأولى لنا أن نتمسك بهذه الوسيلة:

وفي روايات أئمة أهل البيت تصاريح على ذلك، نذكر بعضها لتتجلى الحقيقة بأجل مظاهرها فإن العترة الطاهرة أحد الثقلين اللذين أمر النبي بالتمسك بهما والتمسك بهما لن يضل:

١- روى أبو بصير، عن أبي جعفر، قال: «إن علي بن الحسين قال لأحد علمائه: يا بني اذهب إلى قبر رسول الله فصل ركعتين، ثم قل:

١- ١ مسلم: الصحيح: ٤ / ٢، كتاب الصلاة، الباب ٦؛ الترمذي: الصحيح: ٥ / ٥٨٩، كتاب المعاقب، الباب الأول، واللفظ للأول.

ص: ٤١

اللهم اغفر لعلّي بن الحسين خطيئته يوم الدين، ثم قال للغلام: اذهب فأنت حرّ لوجه الله» (١).

٢- روى محمد بن عجلان قال: سمعت أبا عبد الله يقول: «كان علي بن الحسين إذا دخل شهر رمضان لا يضرب عبداً له ولا أمه، وكان إذا أذنب العبد يكتب عنده، أذنب فلان، أذنب فلانة يوم كذا وكذا ولم يعاقبه، فيجتمع عليهم الأدب حتى إذا كان آخر ليلة من شهر رمضان دعاهم وجمعهم حوله ثم أظهر الكتاب، ثم قال يا فلان: فعلت كذا وكذا ولم أؤدبك أتذكر ذلك؟ فيقول: بلى يا بن رسول الله، ويقررهم جميعاً، ثم يقوم وسطهم ويقول لهم: ارفعوا أصواتكم وقولوا: يا علي بن الحسين إن ربك قد أحصى عليك كل ما عملت كما أحصيت علينا ...

فاعف واصفح كما ترحو من المليك العفو، وكما تحب أن يعفو المليك عنك فاعف عنا تجده عفواً ربك رحيماً- إلى أن قال:- فيقول لهم: قولوا اللهم اعف عن علي بن الحسين كما عفا عنا، فأعتقه من النار كما أعتق رقابنا من الرق، فيقولون ذلك، فيقول: اللهم آمين رب العالمين، إذهبوا فقد عفوت عنكم وأعتقت رقابكم رجاءً للعفو عني وعتق رقبتى» (٢).

٣- وكان أصحاب أئمة أهل البيت يتوسلون بدعائهم، وهذا هو علي بن محمد الحجال كتب إلى أبي الحسن الإمام الهادي وجاء في كتابه: «أصابتنى علة في رجلى ولا أقدر على النهوض والقيام بما يجب فإن رأيت أن تدعو الله أن يكشف عنتي ويعينني على القيام بما يجب عليّ وأداء الأمانة في ذلك ...» (٣).

١- ١ المجلسي: البحار: ٩٢ / ٤٦، نقلًا عن كتاب الزهد لحسين بن سعيد الأهوازي.

٢- ٢ المجلسي: البحار: ١٠٢ / ٤٦، نقلًا عن كتاب الإقبال للسيد ابن طاووس المتوفى عام ٦٦٤ هـ.

٣- ٣ الأربلي: كشف الغمة: ٢٥١ / ٣.

٦ التوسل بدعاء النبي في حياته البرزخية

إشارة

قد تلونا عليك دعوة القرآن الكريم المذنبين للتوسل بدعاء النبي الأكرم، وهناك من يخص مفاد الآيات بحياة النبي الجسمانية قائلاً بانقطاعه عنّا بموته وانتقاله إلى الحياة البرزخية، وما ذلك إلّا أخذاً بظاهر الآية الواردة في حياته الدنيوية، وهذه الفكرة لها قيمتها لدى أصحابها، ولكن للمناقشة فيها مجال واسع. فإذا دلّت الآيات الكريمة والسنة النبوية على امتداد حياته بعد انتقاله إلى البرزخ ووجود الصلة بينه وبيننا، لزم القول بعموم مفاد الآية وشمولها لما بعد الموت، خصوصاً إذا دعمها عمل السلف الصالح والتابعين لهم بإحسان، فهناك مواضيع من البحث لا يمكن القضاء البات فيها إلّا بعد دراستها في ضوء الكتاب والسنة، وهذه المواضيع هي:

ص: ٤٣

- ١- حياة الأنبياء والأولياء بعد انتقالهم إلى البرزخ.
 - ٢- وجود الصلوة بيننا وبينهم، حيث يسمعون كلامنا ويجيبون دعوتنا.
 - ٣- سيرة السلف الصالح على التوسل بعد انتقالهم إلى البرزخ.
- وإليك دراسة المواضيع واحداً تلو الآخر.

الأول: حياة الأنبياء والأولياء بعد انتقالهم إلى البرزخ:

هذا الموضوع هو المهم بين المواضيع، ويمكن الاستدلال عليه من خلال أمور بعضها يدل على حياتهم بصورة مباشرة وأخرى غير مباشرة، وإذا لاحظنا مجموع الأدلة نقطع على حياتهم البرزخية بلا ريب وإليك هذه الأمور:

أ- دلت الآيات الشريفة على حياة الشهداء؛ حياة حقيقية مقترنة بآثارها من الرزق والفرح والاستبشار ودرك المعاني والحقائق، قال سبحانه: «ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون* فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألما خوف عليهم ولا- هم يحزنون* يستبشرون بنعمة من الله وفضله وأنَّ الله لا- يضع أجر المؤمنين» (آل عمران / ١٦٩-١٧١).

فالآية تدل على حياة الشهداء وارتزاقهم عند ربهم مقترنة بالآثار الروحية من الفرح والاستبشار بالذين لم يلحقوا بهم من خلقهم، وتبشيرهم على أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إلى غير ذلك ممّا جاء في الآيتين.

إنَّ الله سبحانه يطرح حياتهم لأجل إظهار كرامته ونعمته عليهم، وبذلك يرد الفكرة السائدة في صدر الرسالة من أن موت الشهيد انتهاء

ص: ٤٤

حياته. وإذا كان الشهداء أحياءً لأجل استشهادهم في سبيل دين الله الذي جاء به النبي الأكرم، فهل يُتصوّر أن يكون الشهداء أحياءً، ولا يكون النبي - الأفضل - القائد حياً، وهذا ما لا تقبله الفطرة السليمة، وأيّ مسلم لهج بخلافه فأنما يلهج بلسانه وينكره بقلبه وعقله. ب- هذا هو حبيب النجار لم يكن له شأن سوى أنه صدق المرسلين ولقى من قومه أذىً شديداً حتى قضى نحبه شهيداً. ففرى أنه بعد موته خوطب بقوله سبحانه: «قيل ادخل الجنة» ثم إنه بعد دخوله الجنة يتمنى عرفان قومه مقامه ومصيره بعد الموت فيقول: «قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين» فهو يتمنى في ذلك الحال لو أن قومه الموجودين في الدنيا علموا أنه سبحانه غفر له وجعله من المكرمين، يتمنى ذلك لأجل أن يرغب قومه في مثله وليؤمنوا لينالوا ذلك.

فمن المعلوم أن الجنة التي حلّ فيها حبيب النجار كانت قبل يوم القيامة، بشهادة أنه تمنى عرفان أهله مقامه وكرامه الله عليه وهم على قيد الحياة الدنيوية، وإن لحقهم العذاب بعد ذلك، قال: «وما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماء وما كنّا منزلين* إن كانت إلّاصيحة واحدة فإذا هم خامدون» (يس / ٢٨ - ٢٩) فإذا كان الشهداء والصالحون - أمثال حبيب النجار المصدّق للرسول - أحياءً يرزقون فما ظنك بالأنبياء والصدّيقين المتقدّمين على الشهداء، قال سبحانه: «ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً» (النساء / ٦٩) فلو كان الشهيد حياً يرزق فالرسول الأكرم الذي ربّي الشهداء واستوجب لهم تلك

ص: ٤٥

المنزلة العليا، أولى بالحياة بعد الوفاة وبعدهم الصديقون.

ج- دلت الآيات الكريمة والبراهين العقلية على أن الموت ليس فناء الإنسان ونفاذه، وإنما هو انتقال من عالم إلى آخر، نعم الماديون المنكرون لعالم الأرواح، والنافون لما وراء الطبيعة يعتقدون بأن الموت فناء الإنسان وضلاله في الأرض بحيث لا يبقى شيء من بعد ذلك إلا الذرات المادية المبعثرة في الأرض، ولهذا كانوا ينكرون إمكان إعادة الشخصية البشرية، إذ ليس هناك شيء متوسط بين المبتدأ والمعاد.

جاء الوحي يندد بتلك الفكرة ويفند دليلهم المبني على قولهم:

«أ إذا ضللنا في الأرض أننا لفي خلق جديد» فردهم بقوله: «قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكدل بكم ثم إلى ربكم ترجعون» (السجدة/ ١٠-١١).

وتوضيح الرد أن الموت ليس ضاللاً في الأرض وأن شخصية الإنسان ليست هي الضالة الضائعة في ثنانيا التراب، وإنما الضال في الأرض هو أجزاء البدن المادى، فهذه الأجزاء هي التي تتبعثر في الأجواء والأرض، ولكن هذه لا تشكل شخصية الإنسان، بل شخصيته شيء آخر هو الذى يأخذه ملك الموت، وهو عند الله محفوظ، كما يقول: «يتوفاكم ملك الموت الذى وكدل بكم ثم إلى ربكم ترجعون» فإذا لا معنى للتوفى إلا الأخذ وهو أخذ الأرواح والأنفس ونزعها من الأبدان وحفظها عند الله.

وهناك آية أخرى تفسر لنا معنى التوفى بوضوح وأنه ليس بمعنى الموت والفناء، بل الأخذ والقبض أى قبض شيء موجود وأخذ شيء واقعى، يقول سبحانه: «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون» (الزمر / ٤٢) فمفاد الآية أن الله يقبض

ص: ٤٤

الأنفس ويأخذها في مرحلتين: حين الموت وحين النوم، فما قضى عليها بعدم الرجوع إلى الدنيا أمسكها، ولم يردّها إلى الجسد، وما لم يقض عليها كذلك أرسلها إلى أجل مسمى. كل ذلك يكشف عن أنّ الموت ليس فناء الإنسان وآية العدم، بل هناك انخلاع عن الجسد وارتحال إلى عالم آخر.

د- وهناك كلمة قيمة لأبي الشهداء الحسين بن علي عليه السلام توضح هذه الحقيقة إذ قال لأصحابه في يوم عاشوراء: «صبراً يا بني الكرام فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء، إلى الجنان الواسعة والنعم الدائمة فأيتكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر، وما هو لأعدائكم إلّا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب، إنّ أبي حدّثني عن رسول الله أنّ الدنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر، والموت جسر هؤلاء إلى جناتهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذبت ولا كُذبت» (١).

وفي هذه الآيات غنى وكفاية لثبوت الحياة البرزخية للأنبياء والشهداء والصدّيقين، بل لغيرهم وقد شهدت بذلك الآيات الكريمة التي لا مجال لنقلها، وهذه الحقيقة ممّا أجمع عليها أئمة أهل السنّة، فهذا الإمام الأشعري يقول: «ومن عقائدنا أنّ الأنبياء عليهم السلام أحياء» وقد ألفت كتاباً أسماه «حياة الأنبياء» (٢).

فلنقتصر بهذا البيان في إثبات الموضوع الأوّل وقد تركنا الاحتجاج على حياتهم بما ورد في السنّة النبويّة وسيوافيك بعضها في المستقبل.

الثاني: الصلة بين الحياة الدنيوية والحياة البرزخية:

إشارة

١- ١ مصطفى الموسوي: بلاغة الحسين: ص ٤٧.

٢- ٢ السبكي: طبقات الشافعية: ٣/ ٤٠٦.

ص: ٤٧

هذا هو الموضوع الثاني من المواضيع الثلاثة التي يتوقف عليها إثبات ما هو المقصود في هذا الفصل. القول بالحياة البرزخية للأنبياء والصدّيقين لا يفى وحده بما هو المهم هنا ما لم يثبت أنّ هناك صلةً بيننا وبينهم في البرزخ، بحيث يسمعوننا ويستطيعون أن يردّوا علينا، وهذا هو الموضوع الثاني الذي أشرنا إليه وهنا نكتفى بأبرز الآيات الواردة في هذا المضمّار التي تدل على إمكان الاتصال بالأرواح المقدسة الموجودة في عالم البرزخ، وهذا وإن أثبتته علم النفس بعد تجارب كثيرة، ولكننا أخذنا على أنفسنا أن نستدل بالكتاب والسنة، ولو كان هناك شيء في العلم فهو أيضاً يدعم مدلول الكتاب والسنة. إنّ الكتاب والسنة تضافراً على إمكان اتصال الإنسان الموجود في الدنيا بالإنسان الحي في عالم البرزخ وإليك بعض الآيات:

١- النبي صالح يخاطب قومه الهالكين:

أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم عن النبي صالح عليه السلام أنّه دعا قومه إلى عبادة الله، وترك معجزته (الناقة) وأمرهم بعدم مسّها بسوء ولكنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربّهم:

«فأخذتهم الرّجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين* فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون النّاصحين» (الأعراف / ٧٨ - ٧٩).

ص: ٤٨

ترى أن الله يخبر على وجه القطع والبت بأن الرجفة أهلكت أمة صالح عليه السلام فأصبحوا في دارهم جاثمين، وبعد ذلك يخبر أن النبي صالح تولى عنهم ثم خاطبهم قائلاً: «لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين». والخطاب صدر من صالح لقومه بعد هلاكهم، وموتهم بشهادة جملة «فتولّى» المصدره بالفاء المشعرة بصدور الخطاب عقيب هلاك القوم.

ثم إن ظاهر قوله: «ولكن لا تحبون الناصحين» يفيد أنهم بلغت بهم العنجهية أن كانوا لا يحبون الناصحين حتى بعد هلاكهم.

٢- مخاطبة النبي شعيب قومه الهالكين:

لم تكن قصة النبي صالح هي القصة الوحيدة من نوعها في القرآن الكريم، فقد تبعه في ذلك «شعيب» إذ خاطب قومه بعد أن عمهم الهلاك، قال سبحانه: «فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين* الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين* فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربّي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين» (الأعراف / ٩١-٩٣). وهكذا يخاطب شعيب قومه بعد هلاكهم ويكون صدور هذا الخطاب بعد هلاكهم بالرجفة. فلو كان الاتصال غير ممكن، وغير حاصل، ولم يكن الهالكون بسبب الرجفة سامعين خطاب صالح وشعيب، فما معنى خطابهما لهم؟ أيصح أن يفسر ذلك الخطاب بأنه خطاب تحسّر وإظهار تأسف؟

ص: ٤٩

كلا، إنّ هذا النوع من التفسير على خلاف الظاهر، وهو غير صحيح حسب الأصول التفسيرية، وإلا لتلاعب الظالمون بظواهر الآيات وأصبح القرآن الكريم لعبة بيد المغرضين، يفسرونه حسب أهوائهم وأمزجتهم. على أنّ مخاطبة الأرواح المقدسة ليست أمراً ممتنعاً في العقل حتى يكون قرينه عليه.

٣- أمر النبي بالتكلم مع الأنبياء:

إشارة

جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى لنبيه: «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون» (الزخرف / ٤٥). ترى أنّ الله سبحانه يأمر النبي الأكرم بسؤال الأنبياء الذين بعثوا قبله، ومن التأويل الباطل إرجاعها إلى سؤال علماء أهل الكتاب استظهاراً من قوله سبحانه: «فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين* ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين» (يونس / ٩٤-٩٥) إذ لا مانع من السؤال عنهم وعن أمتهم ولكل موقفه. هذا هو الذي يرشدنا إليه الوحي في إمكانية الارتباط بالأرواح المقدسة، وأما السنة الدالة على إمكانه، فهي أكثر من أن تحصى، ولكن نكتفي هنا بالبعض.

الأحاديث وإمكان الارتباط بالأرواح:

١- روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه وقف على قلب «بدر» وخاطب

ص: ٥٠

المشركين الذين قتلوا وألقيت جثثهم في القليب:

«لقد كنتم جيران سوء لرسول الله، أخرجتموه من منزله وطردتموه، ثم اجتمعتم عليه فحاربتموه، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً».

فقال له رجل: يا رسول الله ما خطابك لهم قد صديت؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «والله ما أنت بأسمع منهم، وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة بمقامع من حديد إلا أن أعرض

بوجهي - هكذا - عنهم» (١).

٢- روى أن الإمام علياً بعد أن وضعت الحرب في معركة الجمل أوزارها مرّ على كعب بن سور وكان قاضي البصرة فقال لمن حوله:

«أجلسوا كعب بن سور» فأجلسوه بين شخصين يمسانه - وهو صريع - فقال عليه السلام: «يا كعب بن سور قد وجدت ما وعدني ربي

حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟» ثم قال: «أضجعوه» ثم سار قليلاً حتى مر بطلحة بن عبيد الله صريعاً، فقال: «أجلسوا طلحة»

فأجلسوه، فقال عليه السلام: «يا طلحة قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟» ثم قال: «أضجعوا طلحة»

فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟ فقال عليه السلام: «يا رجل والله لقد سمعا كلامي، كما سمع أهل

القليب كلام رسول الله» (٢).

ثم إن المسلمين - على اختلاف مذاهبهم - يسلّمون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة عند ختامها فيقولون: «السلام

عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

١-١ صحيح البخاري: ٥/٧٦، باب قتل أبي جهل؛ وسيرة ابن هشام: ٢/٢٩٢.

٢-٢ المفيد: حرب الجمل، ص ١٩٥؛ والسيد عبد الله شبر: حق اليقين: ٢/٧٣.

ص: ٥١

وينطلقون في ذلك من تعليم النبي ذلك للمسلمين، وإنَّ سنَّه النبي ثابتة له في حياته وبعد وفاته (١). فإذا كانت صلاتنا وعلاقتنا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم قد انقطعت بوفاته فما معنى مخاطبته والسلام عليه يومياً؟ إنَّ هذا السلام يدل على إمكان الارتباط بروحه المقدَّسه بل وقوعه.

فلو كانت الصلوة منقطعة فما معنى قول الرسول فيما تواتر عنه في زيارته لأهل البقيع لعائشة:

«أمرني ربي أن آتي البقيع فأستغفر لهم» قلت: كيف أقول يا رسول الله؟ قال:

«قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين».

وفي رواية: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا وإياكم متواعدون غداً، أو مواكلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

إلى غير ذلك من الصور المختلفة لزيارة النبي لبقيع الغرقد، والاختلاف في الصور إنما هو لأجل تكرار العمل منه صلى الله عليه وآله وسلم فلاحظ المصادر (٢).

قال رسول الله: «إنَّ لله تعالى ملائكة سيّاحين في الأرض تبلغني

١- ١ كتاب الخلاف: ١/ ٤٧، وقد اتفقت كلمة أئمة المذاهب الأربعة على وجود هذا السلام في التشهد.

٢- ٢ صحيح مسلم: ٢/ ٦٣، باب ما يقال عند دخول القبر؛ سنن النسائي: ٣/ ٧٦، وسنن أبي داود.

ص: ٥٢

عن أمتي السلام».

«ما من أحد يسلم عليّ إلّا ردّ الله عزّ وجلّ عليّ روحى حتى أرد عليه السلام».

«من صلّى عليّ عند قبرى سمعته ومن صلّى عليّ نائياً أُبلِغَتْ».

«صلّوا عليّ فإنّ صلواتكم تبلغنى حيث كنتم».

«من زارنى بعد وفاتى وسلّم عليّ رددت عليه السلام عشراً، وزاره عشرة من الملائكة كلّهم يسلمون عليه، ومن سلّم عليّ فى بيت ردّ الله عليّ روحى حتى أسلم عليه» (١).

الثالث: سيرة السلف الصالح في التوسل بدعاء النبي بعد رحيله:

النظر إلى سيرة المسلمين بعد لحوق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى يثبت أنّهم كانوا يتوسلون بدعائه، كتوسلهم به قبل لحوقه به فما كانوا يرون فرقاً بين الحالتين، فمن تصفّح سيرة المسلمين ورجع إلى غضون الكتب وشاهد عملهم فى المسجد النبوى قرب مزاره الشريف، يلمس بسهولة استقرار السيرة على التوسل بدعائه من غير فرق بين حياته وانتقاله، وها نحن نذكر من أعمال بعض الصحابة والتابعين شيئاً سيراً ونترك الباقي للمتصفّح فى غضون الكتب.

إنّنا لا يمكننا تصديق جميع ما روى مع العلم بأنّ بين المرويات قضايا صادقة صدرت عن أناس صالحين غير أنّها بكثرتها تدل على أنّ التوسل كان أمراً رائجاً منذ عصر الصحابة إلى زماننا هذا، ولم يكن أمراً

١-١ راجع سنن أبى داود: ٢/٢١٨، كتر العمال: ١٠/٣٨؛ طبقات الشافعية للسبكي: ٣/٤٠٦-٤٠٨.

ص: ٥٣

غريباً عند المسلمين.

ولو فرضنا أن بعض هذه القضايا تخالف الواقع، فلا ريب أنه من باب استغلال الوضّاعين لأصل مسَلّم صحيح بين المسلمين، وهو صحّة التوسل بدعاء النبي الأكرم بعد رحيله. فإنهم نسجوا بعض القضايا في ظل ذلك الأصل.

ولو فرضنا أنه لم يكن أمراً رائجاً بين المسلمين بل كان أمراً غريباً أو محظوراً لما تجزأ المستغل أن ينسج قضية كاذبة على نول الشرك أو المحرم، فإن الذي يحفز الوضّاع على نسج الخرافة هو استعداد العامة لقبول تلك الخرافة ولولاه لما تجزأ عليه لعدم حصول الغاية المتوخاة من نسجها.

فهذه القضايا الكثيرة تدل - على كلا التقديرين - على المطلوب، فإن كانت صادقة فبصدقها، وإن كانت كاذبة فلاجل حكايتها عن وجود أصل مسَلّم بين المسلمين وهو التوسل بدعاء النبي الأكرم قبل وبعد موته، وكان هذا الأصل ربما يستغل أحياناً من بعض المتاجرين بالدين.

على أن بعضها ممّا رواه الإمام البخارى وسائر أصحاب الصحاح فلنذكر نماذج:

١- هذا أبو بكر: أقبل على فرسه من مسكنه بالسبخ حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة - رضی اللہ عنہا - فتميم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى، فقال: بأبي أنت يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها (١).

١-١ البخارى: الصحيح: ١٧/٢، كتاب الجنائز.

ص: ٥٤

فلو لم تكن هناك صلة بين الحياتين فما معنى قوله: «بأبي أنت يا نبي الله» لو لم يكن سماع فماذا قصد ذلك الصحابي من قوله: «لا يجمع الله عليك موتتين».

٢- روى السهيلي في الروض الأنف: «دخل أبو بكر على رسول الله في بيت عائشة ورسول الله مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبره، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً» (١).

٣- روى الحلبي في سيرته وقال: «جاء أبو بكر من السنخ وعيناه تهملان فقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً» (٢).

٤- روى مفتي مكة المشرفه زيني دحلان في سيرته فذكر ما ذكره، وقال: قال أبو بكر: طبت حياً وميتاً، وانقطع بموتك ما لم ينقطع للأنباء قبلك، فعظمت عن الصفة وجلت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختياراً لجدنا لموتك بالنفوس، اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن على بالك (٣).

٥- قال أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما ولي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والإنباء وأخبار السماء- إلى أن قال:- بأبي أنت

١- ١ أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي ٥٠٨-٥٨١ هـ، الروض الأنف: ٤ / ٢٦٠.

٢- ٢ الحلبي علي بن برهان الدين ٩٧٥-١٠٤٤ هـ: السيرة الحلبيّة: ٣ / ٤٧٤ ط. دار المعرفة، بيروت.

٣- ٣ سيرة الزيني دحلان بهامش السيرة الحلبيّة: ٣ / ٣٩١، ط. مصر.

ص: ٥٥

وأُمى اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك» (١).

وقد أوضح السبكي أمر الإجماع على الزيارة قولاً وفعلاً، وسرد كلام الأئمة في ذلك، وبين أنها قرينة بالكتاب، والسنة والإجماع، والقياس.

وأما الكتاب فقوله تعالى: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك» الآية دالة على الحث بالمجيء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والاستغفار عنده، واستغفاره لهم وهذه رتبة لا تنقطع بموته صلى الله عليه وآله وسلم، وقد حصل استغفاره لجميع المؤمنين، لقوله تعالى: «استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات» فإذا وجد مجيئهم، فاستغفارهم، كملت الأمور الثلاثة الموجبة لتوبة الله ولرحمته. وقوله: «واستغفر لهم» معطوف عليه قوله: «جاءوك» فلا يقتضى أن يكون استغفار الرسول بعد استغفارهم مع أننا لا نسلّم أنه لا يستغفر بعد الموت، لما سبق الدليل على حياته وعلى استغفاره لأئمة بعد الموت عند عرض أعمالهم عليه، ويعلم من كمال رحمته أنه لا يترك ذلك لمن جاءه مستغفراً ربّه.

والعلماء فهموا من الآية العموم لحالتي الموت والحياة، واستحبوا لمن أتى القبر أن يتلوها ويستغفر الله تعالى، وحكاية الأعرابي في ذلك نقلها جماعة من الأئمة عن العتبي، واسمه محمد بن عبد الله بن عمرو، أدرك ابن عيينة وروى عنه، وهي مشهورة حكاها المصنفون في المناسك من جميع المذاهب، واستحسنوها، ورأوها من أدب الزائر، وذكرها ابن عساكر في تاريخه، وابن الجوزي في مثير

ص: ٥٦

الغرام الساكن، وغيرهما بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي، قال:

دخلت المدينة، فأتيت قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فزرته وجلست بحذاءه، فجاء أعرابي فزاره، ثم قال: يا خير الرسل إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم - إلى قوله - رحيماً» وإني جئتكم مستغفراً ربك من ذنوبي، متشفعاً بك، وفي رواية: وقد جئتكم مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم بكى وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهنّ القاع والأكرم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف، قال: فرقدت فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نومي وهو يقول: إحق الرجل وبشره بأن الله غفر له بشفاعتي، فاستيقظت، فخرجت أطلبه فلم أجده.

قلت: بل قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان في كتابه «مصباح الظلام»: إن الحافظ أبا سعيد السمعي ذكر فيما روينا عنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قدم علينا أعرابي بعدما دفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحثا من تراه على رأسه، وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله سبحانه وما وعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله...» وقد ظلمت، وجئتكم تستغفر لي، فنودي من القبر: أنه قد غفر لك، انتهى.

وروى ذلك أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عبد الله الكرخي عن علي بن محمد بن علي، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن الهيثم الطائي، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن سلمة بن كهيل، عن ابن صادق، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فذكره، ولا منافاة بين النقلين لإمكان التعدد، وعلى فرض الوحدة فأحد النقلين اقتصر، والآخر أسهب في النقل، فنقل

ص: ٥٧

جميع القصة.

وقد أدرك ذلك الأعرابي بسلامة فطرته أن الآية الكريمة التي تدعو المسلمين إلى المجيء إلى النبي حتى يطلبوا منه أن يستغفر لهم، ليست خاصة بحياء النبي الدنيوية، بل تعم الحياة الأخروية، فلأجل ذلك قام يطلب من النبي أن يستغفر له، وقال عياض في الشفاء بسند جيد عن ابن حميد- أحد الرواة- عن مالك فيما يظهر، قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال مالك: «يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوماً فقال: «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي» الآية، ومدح قوماً فقال:

«إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله» الآية، وذم قوماً فقال:

«إن الذين ينادونك من وراء الحجرات» الآية، وإن حرمة ميتاً كحرمة حياً، فاستكان لها أبو جعفر، فقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: لم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به، فيشفعك الله تعالى قال الله تعالى: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم» الآية.

فانظر هذا الكلام من مالك، وما اشتمل عليه من أمر الزيارة والتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم واستقباله عند الدعاء وحسن الأدب التام معه.

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين السامري الحنبلي في المستوعب «باب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم» وذكر آداب الزيارة، وقال:

ثم يأتي حائط القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه، والقبلة خلف ظهره، والمنبر عن يساره، وذكر كيفية السلام والدعاء.

منه: اللهم إنك قلت في كتابك لنيك عليه السلام: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك» الآية، وإني قد أتيت نبيك مسغفراً، فأسألك أن توجب

ص: ٥٨

لى المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه فى حياته، اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك صلى الله عليه وآله وسلم وذكر دعاءً طويلاً (١).
 هذه نماذج قدمناه إليك لتكون على بينة من هذا الأمر وأنه لم يكن هناك فرق بين الحياتين، وقد نقل المؤرخون أموراً كثيرة يضيق الوقت بنقلها ولو كنا شاكين فى صدق بعض هذه التوسلات ولكن نقل علماء السيرة والتاريخ المقدار الهائل من التوسلات بدعاء النبى - بعد رحيله - يكشف أن التوسل بدعاء النبى الأكرم كان أمراً رائجاً بين المسلمين ولم يكن أمراً غريباً ولا محظوراً وإلا لما صح أن ينقل المؤرخ ما يتلقاه المسلمون أمراً مرغوباً عنه. وقد ذكرها لقيف من المحققين فى كتبهم فراجعها (٢).
 وليس لنا أن نترك السيرة المستمرة الهائلة التى يلمسها من توقف هنيهة لدى القبر الشريف النبوى وقد قال سبحانه: «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً» (النساء / ١١٥).
 وقد نقل السهمودى نبذاً مما وقع لمن استغاث بالنبى أو طلب منه شيئاً عند قبره فأعطى مطلوبه ونال مرغوبه مما ذكره الإمام محمد بن موسى بن النعمان فى كتابه «مصباح الظلام فى المستغيثين بخير الأنام» (٣).

شبهات لابد من الإجابة عليها

إشارة

- ١- ١ السهمودى: وفاء الوفا: ٤ / ١٣٦٠ - ١٣٦٢.
- ٢- ٢ لاحظ شفاء السقام فى زيارة خير الأنام للسبكي، والدرر السنية لزينى دحلان، والمبرد المبكى فى رد الصارم المنكى لابن علان، ونضرة الإمام السبكي برد الصارم المنكى للسهمودى.
- ٣- ٣ وفاء الوفا: ٤ / ١٣٨٠ - ١٣٨٧. طالع ذلك الفصل تجد فيه حكايات وقضايا كثيرة تدل على جريان السيرة بين المسلمين على التوسل بدعاء النبى الأكرم.

ص: ٥٩

قد تعرفت على أدلة التوسيل بدعاء النبي الأكرم وأنه أمراً أطبق على جوازه الكتاب والسنة النبوية وسيرة المسلمين، غير أن هناك شبهات أثارها بعض من اتخذ في هذه المسألة موقفاً مسبقاً فزعم أن هناك أشواكاً في الطريق تعثر طريق السالكين المتوسلين وبدورنا نذكر هذه الشبهات بألفاظها ثم نأتي بما يقلعها من أساسها.

الشبهة الأولى البرزخ مانع من الاتصال

إن الحياة البرزخية حياة لا يعلمها إلا الله فهي حياة مستقلة نؤمن بها ولا نعلم ماهيتها، وإن بين الأحياء والأموات حاجزاً يمنع الاتصال فيما بينهم قطعياً، وعلى هذا يستحيل الاتصال لا ذاتاً ولا صفاتاً وأنه سبحانه يقول: «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» (المؤمنون/ ١٠٠) والبرزخ معناه الحاجز الذي يحول دون اتصال هؤلاء بهؤلاء (١).

هذه العبارة تتضمن أمرين قد خلط الكاتب بينهما:

أ- إن الحياة البرزخية لا نعلم حقيقتها.

ب- إن البرزخ حاجز مانع عن الاتصال.

فعلى هامش الأمر الأول نقول: إن حقيقة الحياة مطلقاً- مادية كانت أم برزخية- أمر مجهول لا يعلم حقيقتها إلا خالقها، والذي يعود إلى إمكاننا هو التعرف على آثارها وخصوصياتها، فكما أن الحياة المادية معلومة لنا ببعض آثارها، وكلما يتقدم العلم يتقدم الإنسان في

١- ١ محمد نسيب الرفاعي: التوصل إلى حقيقة التوسل: ٢٦٧.

ص: ٦٠

ميادين التعرف على آثارها، وهكذا الحياة البرزخية فهي مجهولة الحقيقة ولكنها معلومة بآثارها، وقد ذكر الكتاب العزيز بعضها، وأن الشهداء الأحياء بحياتهم البرزخية يُرزقون، يُفرحون بما آتاهم الله، يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، ويستبشرون بنعمه من الله، وأنهم ربّما يتمنون أموراً كتمنى حبيب النجار عرفان قومه بمصيره كما قال سبحانه: «قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين».

إنّ الحياة البرزخية لا تختص بالمؤمنين، وهناك من المذنبين الكافرين من تعمّم كآل فرعون إذ يعرضون على النار غدواً وعشيا، قال سبحانه: «وحاق بآل فرعون سوء العذاب* النار يعرضون عليها غدواً وعشيا* ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب» (غافر/ ٤٥-٤٦).

وهذا المقدار من التعرف يكفينا في القضاء بأنّ لهم شعوراً واستشعاراً ودركاً وتعقلاً وظواهر نفسية من الفرج والألم وغير ذلك، ولا تتطلب مسألة التوسّل سوى كون المتوسّل به عاقلاً حياً مدركاً شاعراً ملتفتاً إلى الدنيا وما يجري فيها.

وعلى هامش الأمر الثاني نقول: إنّ البرزخ بمعنى الحاجز لا بمعنى انقطاع الصلة بين أهل الدنيا وأهل الآخرة ومن فسّره بالمعنى الثاني فإنّما انتخبه لدعم مذهبه وإنّما هو مانع من رجوع الناس إلى حياتهم الدنيا.

ويدلّ على ذلك: أنّه سبحانه ذكر أمر البرزخ بعدما ذكر تمنّي العصاة الرجوع إلى الدنيا، قال سبحانه: «حتّى إذا جاء أحدهم الموتُ قال

ص: ٦١

ربّي ارجعوني لعلّى أعمل صالحاً فيما تركت كلّاً إنّها كلمه هو قائلها» (المؤمنون / ١٠٠).

فقلوه: «كلّاً» ردع لتمنّى رجوعهم، يعنى لا- يستجاب دعائهم، ثم عاد سبحانه يؤكده بقوله: «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» أى حائل مانع من الرجوع إلى الدنيا إلى يوم يبعثون.

إنّ اتّخاذ موقف مسبق فى المسأله يشكّل مانعاً من الوصول إلى الحقيقه، ويعد من موانع المعرفه الصحیحه فبما أنّ القائل يقتضى أثر من يقول لا- يصح التوسّل بدعاء النبى الأكرم فى البرزخ، فقد أراد نحت دليل لقوله ففسّر البرزخ فى الآيه بمعنى المانع عن الاتصال لا المانع عن انتقال أهل البرزخ إلى الدنيا، فكأنّه يصوّر أنّ بين الحياتين ستاراً حديدياً أو جداراً ضخماً يمنع من اللقاء والسمع، وليس لما يتخيله دليل، بل الدليل على خلافه، ترى أنّه سبحانه يحكى عن ماء البحرين أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ثم يقول: «وبينهما برزخ لا يبغيان» أى مانع يمنع عن اختلاط المائين، يقول سبحانه: «مرج البحرين يلتقيان* بينهما برزخ لا يبغيان» (الرحمن ١٩-٢٠) ولم يكشف العلم عن وجود سدّ مادى بين البحرين.

الشبهة الثانية: امتناع اسمع الموتى

إنّ الله تعالى يقول: «فإنّك لا تسمع الموتى» (الروم / ٥٢) والنمل بحذف الفاء / (٨٠).

ويقول عزّ وجلّ: «وما أنت بمسمع من فى القبور» (فاطر / ٢٢).

والرسول بعد أن توفاه الله هو من الموتى ومن أهل القبور فثبت

ص: ٦٢

أنه لا- يسمع دعاء أحد من أهل الدنيا وإن كان هو والأنبياء، لا يُبْلُونَ لأنَّ الله قد حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، ولكنهم أجساد بلا أرواح وهم أموات (١).

فعلى هامش هذه الشبهة نقول: أوّلًا: إن قوله: «الرسول بعدما توفاه الله هو من الموتى» ظاهر في إنكار الحياة البرزخية للأنبياء، فلو كان النبي من الموتى فالشهداء من الموتى مع أن القرآن يندد من يعدّهم أمواتاً إذ يقول: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون».

نعم يقول سبحانه: «إنك ميت وإنهم ميتون» (الزمر / ٢٠) ولكن لا بمعنى الفناء المطلق، بل انسلاخ الروح عن البدن وانتقاله إلى العالم الآخر.

و ثانياً: إن هاتين الآيتين ناظرتان إلى الأجساد الموجودة في القبور، فإنها هي التي لا تسمع ولا تعي والاتصال لا يكون بيننا وبين هذه الأجساد، بل يتحقق بيننا وبين الأرواح الطاهرة والنفوس الزكية الباقية الخالدة، وإن تبعثر الجسد وتناثرت أجزاءه، فالأرواح هي التي يُسَلَّمُ وَيُصَلَّى عليها وهي التي تسمع وترد.

وأما الحضور عند المراقد التي تضمّنت الأجساد والأبدان، فلاجل أنه يبعث على التوجه إلى صاحب تلك الأجساد ويكون أدعى إلى تذكّر خصاله أو صفاته، وإلّا فإن الارتباط بهم، والسلام عليهم، ممكن حتى من مكان ناء وبلد بعيد، كما تصرّح بذلك بعض أحاديث الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ص: ٦٣

ولابن القيم كلام في تفسير الآيتين تأتي بنصه:

قال: أما قوله تعالى: «وما أنت بمسمع من في القبور» فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعاً يُتفَع به كما أن من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعاً ينتفعون به، ولم يُرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئاً البتة كيف وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه وشرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع، وأخبر أن من سلم على أخيه المؤمن ردّ عليه السلام.

هذه الآية نظير قوله: «إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصّم الدعاء إذا ولّوا مدبرين» وقد يقال: نفى إسماع الصّم مع نفى إسماع الموتى يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للإسماع، وأنّ قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان إسماعها ممتنعاً بمنزلة خطاب الميت والأصم، وهذا حقّ ولكن لا ينفى إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توييحٍ وتقريعٍ بواسطة تعلّقها بالأبدان في وقت ما، فهذا غير الإسماع المنفى واللّه أعلم (١).

*** وقال أيضاً: قال ابن عبد البر: ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ما من مسلم يمرّ على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلمّ عليه إلّارّدّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام. فهذا نص في أنه يعرفه بعينه ويرد عليه السلام.

١-١ الإمام شمس الدين ابن القيم: الروح: ٤٥-٤٦، ط. دار الكتب العلمية بيروت.

ص: ٦٤

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه متعددة أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب، ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإنى وجدت ما وعدنى ربي حقاً؟ فقال له عمر: يا رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا؟ فقال: والذى بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جواباً.

وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه.

وقد شرع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأئمة إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل - ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد.

والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له ويستبشر به.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا فى كتاب القبور، باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء:

(حدثنا) محمد بن عون: حدثنا يحيى بن يمان، عن عبد الله بن سمعان، عن زيد بن أسلم، عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم.

(حدثنا) محمد بن قدامة الجوهري: حدثنا معن بن عيسى القزاز: أخبرنا هشام بن سعد: حدثنا زيد بن أسلم عن أبى هريرة - رضى

ص: ٦٥

اللَّهِ تعالى عنه - قال: إذا مرَّ الرجل بقبر أخيه يعرفه فسَلِّم عليه ردَّ عليه السلام وعرفه، وإذا مرَّ بقبر لا يعرفه فسَلِّم عليه ردَّ عليه السلام (١).

ويدل على هذا أيضاً ما جرى عليه عمل الناس قديماً وإلى الآن من تلقين الميت في قبره، ولولا أنه يسمع ذلك وانتفع به لم يكن فيه فائدة وكان عبثاً، وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه واحتجَّ عليه بالعمل.

الشبهة الثالثة: انقطاع عمل الإنسان

يدل على انقطاع الصلوة بين الحياتين الحديث المتواتر عن رسول الله: «إذا مات المرء انقطع عمله إلّا عن ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له» وهذه الرواية تشمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم (٢).

فعلى هامش هذه الشبهة نقول: إنَّ من وطن نفسه على إثبات ما يتمناه سواء أكان حقاً أم باطلاً فهو يتمسك بكل شيء سواء أكانت له دلالة على ما يتبناه أم لا.

فأى دلالة لهذا الحديث على انقطاع الصلوة، إذ غاية ما يدل عليه أن الإنسان لا ينتفع بعمله شخصياً بعدما انتقل إلى البرزخ إلّا عن ثلاث، فليس له عمل مباشر ينتفع به إلّا هذه الثلاث، وأمّا أنه لا يتمكن من التكلم والجواب والاستغفار في حق الغير فلا دلالة للحديث عليه. هكذا تزول الشبهات ويبقى الأصل سليماً وهو أن الأنبياء أحياء

١-١ الإمام شمس الدين ابن القيم: الروح: ٥-٦.

٢-٢ المصدر نفسه: ٢٦٧.

ص: ٦٦

بعد مفارقة الأرواح لأجسادهم الطاهرة وأنه من الممكن اتصال الأحياء بأرواحهم، كل ذلك بإذنه سبحانه.

التلّون فى الاستدلال

نرى أنّ المانعين عن التوسّل بدعاء النبي فى حياته البرزخية يتلّونون فى الاستدلال، فتارةً ينفون حياة النبي بعد الموت وأخرى ينفون إمكان الاتصال وثالثةً يدعون لغوية هذا العمل، ونعوذ بالله من قولهم الرابع إذ يعدّون العمل شركاً وعبادة للرسول، أمّا الثلاث الأولى فقد ظهرت حالها، وأمّا الشرك فلا يدرى كيف يوصف به، مع أنّ هذا عمل واحد يُطلب فى حياة النبي ويُطلب بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى أفيمكن أن يكون شيء واحد توحيداً فى حالة وشركاً فى أخرى مع أنّه لا يسأل الرسول بما أنّه إله، أو ربّ أو بيده مصير الداعى، وإنّما يسأله بما أنّه عبد صالح ذو نفس طاهرة وكريمة وهو أفضل الخلائق وأحد الأمانين فى الأرض يستجاب دعاؤه ولا يرد.

ص: ٦٧

٧ التوسّل بالأنبياء والصالحين أنفسهم

إشارة

هناك قسم آخر من التوسّل وهو التوسّل بذوات الأنبياء والصالحين وجعلهم وسيلة لاستجابة الدعاء، والتنويه بما لهم من المقام والمنزلة عند الله سبحانه، وهذا غير القسم الخامس، ففي القسم الماضي كنّا نتوسّل بدعاء النبي ونجعل دعاءه وسيلة إلى الرب وفي هذا القسم نجعل نفس الرسول وكرامته عند الله وسيلة إلى الرب.

ومن الإمعان في القسم السابق يُعرف مفهوم هذا التوسّل لأنّ التوسّل بدعائه لأجل أنّه دعاء روح طاهرة، ونفس كريمة، وشخصية مثالية وأفضل الخلائق، ففي الحقيقة ليس الدعاء بما هو دعاء، وسيلة، وإنّما الوسيلة هي الدعاء النابع عن تلك الشخصية الإلهية التي كرمها الله وعظّمها ورفع مقامها وذكراها وقال: «ورفعنا لك ذكرك» (الانشراح / ٤).

ص: ٤٨

وأمر المسلمين بتكريمه وتعزيره حيث قال: «فالمّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه وأتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون» (الأعراف / ١٥٧) فقله «عزّروه» بمعنى أكرموه.

فإذا كان رصيد استجابته الدعاء هو شخصيته الفدّة المثاليّة، ومنزلته عند الله فالأولى أن يتوسّل بها الإنسان كما يتوسّل بدعائه، فمن اعترف بجواز الأوّل ومنع الثاني فقد فرّق بين أمرين متلازمين، وما دعاهم إلى التفريق بينهما إلّا صيانه لمعتقدهم. وبدورنا نغض النظر عن هذا الدليل ونذكر ما ورد في السنّة النبويّة مروياً عن طريق صحيح أقرّ به الأقطاب من أهل الحديث.

١- توسّل الضريّر بنبيّ الرّممة

عن عثمان بن حنيف أنّه قال: إنّ رجلاً ضريراً أتى النبيّ فقال: أدعُ الله أن يعافيني فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن شئت دعوتُ وإن شئت صبرتُ وهو خير.

قال: فادعه قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهمّ إنّني أسألك وأتوجه اليك بنبيّك محمّد نبي الرّممة، يا محمّد إنّني أتوجه بك إلى ربّي في حاجتي لتُقضى، اللّهمّ شفّعه فيّ».

قال ابن حنيف: «فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضرر» (١).

١- ١ الترمذى: الصحيح، كتاب الدعوات، الباب ١١٩، برقم ٣٥٧٨، وسنن ابن ماجه ١: ٤٤١ برقم ١٣٨٥، مسند أحمد: ٤ / ١٣٨ إلى غير ذلك من المصادر وسيأتي في المتن نصوصهم حول وصف الحديث.

ص: ٦٩

إنّ الاستدلال بالرواية مبنى على صحّتها سنداً وتمامية دلالتها مضموناً.

أمّا الأول: فلم يناقش في صحّتها إلّا الجاهل بعلم الرجال، حتى أنّ ابن تيمية قال: قد روى الترمذى حديثاً صحيحاً عن النبي أنّه علّم رجلاً أن يدعو فيقول: اللهمّ إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيك. وروى النسائي نحو هذا الدعاء» (١).

وقال الترمذى: هذا حديث حق حسن صحيح.

وقال ابن ماجه: هذا حديث صحيح.

وقال الرفاعي: لا شك أنّ هذا الحديث صحيح ومشهور (٢).

وبعد ذلك فلم يبق لأحد التشكيك في صحّة سند الحديث إنّما الكلام في دلالته وإليك البيان:

إنّ الحديث يدل بوضوح على أنّ الأعمى توسّل بذات النبي بتعليم منه صلى الله عليه وآله وسلم والأعمى وإن طلب الدعاء من النبي الأكرم في بدء الأمر إلّا أنّ النبي علّمه دعاء تضمن التوسّل بذات النبي، وهذا هو المهم في تبين معنى الحديث.

وبعبارة ثانية: أنّ الذي لا ينكر عند الإمعان في الحديث أمران:

الأول: أنّ الراوى طلب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدعاء ولم يظهر منه توسّل بذات النبي.

الثاني: أنّ الدعاء الذي علّمه النبي، تضمّن التوسّل بذات النبي بالصراحة التامة، فيكون ذلك دليلاً على جواز التوسّل بالذات.

١-١ مجموعة الرسائل والمسائل: ١٣/١.

٢-٢ الرفاعي: التوصل إلى حقيقة التوسّل: ١٥٨.

ص: ٧٠

وإليك الجمل والعبارات التي هي صريحة في المقصود.

١- اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك:

إن كلمة «بنبيك» متعلقة بفعلين هما «أسألك» و «أتوجه إليك» والمراد من النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه القدسيه وشخصيته الكريمة لا دعاؤه.

وتقدير كلمة «دعاء» قبل لفظ «بنبيك» حتى يكون المراد هو «أسألك بدعاء نبيك أو أتوجه إليك بدعاء نبيك» تحكّم وتقدير بلا دليل. وتأويل دون مبرر ولو أنّ محدثاً ارتكب مثله في غير هذا الحديث لرموه بالجهمية والقدرية.

٢- محمد نبي الرحمة:

لكي يتّضح أنّ المقصود هو السؤال من الله بواسطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشخصيته فقد جاءت بعد كلمة «بنبيك» جملة «محمد نبي الرحمة» لكي يتّضح نوع التوسّل والمتوسّل به بأكثر ما يمكن.

٣- يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي:

إنّ جملة «يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي» تدل على أنّ الرجل الضرير- حسب تعليم الرسول- اتخذ النبي نفسه، وسيلة في دعائه أي أنّه توسّل بذات النبي لا بدعائه صلى الله عليه وآله وسلم.

٤- وشفّعه في:

إنّ قوله «وشفّعه في» معناه يا رب اجعل النبي شفيعى وتقبّل شفاعته في حقّي، وليس معناه تقبل دعاءه في حقّي، فإنّه لم يرد في الحديث أنّ النبي دعا بنفسه حتى يكون معنى هذه الجملة: استجب دعاءه في حقّي.

ولو كان هناك دعاء من النبي، لذكره الراوي إذ ليس دعاءه صلى الله عليه وآله وسلم

ص: ٧١

من الأمور غير المهمة حتى يتسامح الراوى فى حقه.

وحتى لو فرضنا أن معناه «تقيل دعاءه فى حقى» فلا يضر ذلك بالمقصود أيضاً، إذ يكون على هذا الفرض هناك دعاء: دعاء الرسول ولم يُقَل لفظه، والدعاء الذى علمه الرسول للضرير، وقد جاء فيه التصريح بالتوسل بذات النبى وشخصه وصفاته، وليس لنا التصرف فى الدعاء الذى علمه الرسول للضرير، بحجة أنه كان هناك للرسول دعاء. لقد أورد هذا الحديث النسائى والبيهقى والطبرانى والترمذى والحاكم فى مستدركه ولكن الترمذى والحاكم ذكرا جملة «اللهم شفّعه فيه» بدل «وشفّعه فى».

إجابة على سؤال

إن من يمنع التوسل بشخصية الرسول المثالية لِمَا وقع أمام هذا الحديث تعجب عاصباً على انملته فحمل الحديث على أنه من قبيل التوسل بدعاء الرسول لا بشخصه وذاته الكريمة مستدلاً بقول الضرير «ادعو الله أن يعافينى» وقد خلط بين أمرين: الأول: المحاوره الابتدائية التى وقعت بين النبى والضرير، فكان المطلوب بلا شك، هو طلب الدعاء من النبى، وهذا ما لا ينكره أحد، إنما الكلام فيما يأتى.

الثانى: الدعاء الذى علمه الرسول للضرير فإنه تضمّن التوسل بذات النبى ولا يمكن لأحد أن ينكر التصريح الموجودة فى الحديث. والتصرف فى النص الثانى بحجة أن الموضوع فى المحاوره الأولى هو طلب الدعاء، تصرف نابع من اتخاذ موقف مسبق قبل النظر

ص: ٧٢

إلى الحديث، فإنّ الأعمى لم يدُر في خلدته في البداية سوى دعاء الرسول المستجاب، ولكن الدعاء الذي علّمه الرسول أن يدعو به بعد التوضؤ، مشتمل على التوسّل بذات النبي.

قال الدكتور عبد الملك السعدي: وقد ظهر في الآونة الأخيرة أناس ينكرون التوسّل بالذات مطلقاً، سواء كان صاحبها حيّاً أو ميتاً. وقد أوّلوا حديث الأعمى وقالوا: إنّ الأعمى لم يتوسّل ولم يأمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم به بل قال له: صلّ ركعتين ثم اطلب مني أن أدعو لك ففعل.

وأنت يا أخي عليك أن تقرأ نص الحديث هل يحتمل هذا التأويل، وهل فيه هذا المدعى أم أنّه أخذ يطلب من الله متشفعاً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يدع له صلى الله عليه وآله وسلم. ولو أراد منه ذلك لاستجاب له أوّل مرّة حيث طلب منه الدعاء بالكشف عن بصره فأبى إلّا أن يصلّي ويتولّى الأعمى بنفسه الدعاء (١).

التوسّل بذات النبي بعد رحيله

إنّ الصحابي الجليل عثمان بن حنيف فهم من الحديث السابق أنّ التوسّل بذات النبي وشخصه يعم حياته ومماته، فلأجل ذلك عندما رجع إليه بعض أصحاب الحاجة علّمه نفس الدعاء الذي علّمه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم للضرير ومن حسن الحظ كان توصله ناجحاً.

روى الطبراني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمّه عثمان بن حنيف، أنّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكى

١- الدكتور عبد الملك السعدي: البدعة في مفهومها الاسلامي الدقيق، ط. بغداد شارع المتنبى.

ص: ٧٣

ذلك إليه فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضى لي حاجتي» فتذكر حاجتك ورح إلى حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضى الله عنه فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان رضى الله عنه فأجلسه معه على الطنفسة فقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت الساعة؟ وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلمته فني، فقال عثمان بن حنيف: واللّه ما كلمته، ولكنني شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأتاه ضرير فشكى إليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أفتبصر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شقّ عليّ.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ائت الميضأة فتوضأ ثم صلّ ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات.

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرّ قط (١).

إنّ دلالة الحديث على جواز التوسّل بذوات الصالحين وأخصّ منهم الأنبياء أمر لا ستره فيه، نعم بعض من لا يروقه هذا النوع من

١-١ المعجم الكبير للحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني ت ٣٦٠ هـ: ١٦/٩-١٧، باب ما أسند إلى عثمان بن حنيف، برقم ٨٣١٠، والمعجم الصغير له أيضاً: ١/١٨٣-١٨٤.

ص: ٧٤

التوسّل، أراد التشكيك في الرواية بوجهين، فقال:

أولاً: إنّ معنى التوسّل عند الصحابة هو دعاء الشخص المتوسّل به إلى الله تعالى بقضاء حاجة المتوسّل لا كما يعرفه القوم في زماننا هذا من التوسّل بذات المتوسّل به.

ثانياً: لو كان دعاء الأعمى الذي علّمه رسول الله دعاءً ينفع في كلّ زمان ومكان لما رأينا أيّ أعمى على وجه البسيطة (١).

يلاحظ على كلامه الأول: بأنّه من غرائب الكلام فقد جعل من مذهبه دليلاً على ضعف الرواية، وهو أنّ معنى التوسّل عند الصحابة هو التوسّل بدعاء الشخص لا بذاته. فمن أين علم أنّه مذهب الصحابة وهل أنّ مذهبهم يُعرف من خلال أحاديثهم، مع أنّ الحديثين المرويين عن طريق ذلك الصحابي الجليل عثمان بن حنيف يدلّان على خلافه؟

وأما الثاني: فهو إطاحه بالوحي، وازدراء به، ولو صحّ ما ذكره فلقائل أن يقول: لو صحّ قوله سبحانه: «ادعوني أستجب لكم» (غافر / ٦٠) يجب أن لا يبقى على وجه البسيط ذو عاهة.

والجواب عن تلك الوسوسة في كلا المقامين واحد، وهو أنّ الدعاء مقتض ل نزول الرحمة ودفع الكربة ولكن ليس السبب تاماً لنجاح المقصود، بل له شروط وله موانع وعوائق، ولأجل ذلك نرى أنّ بعض الأدعية لا تستجاب، مع أنّه سبحانه يحثّ على الدعاء وأنّه يستجيب دعاء من دعاه، ويقول: «وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم».

مناقشة في سند الرواية

لقد تعرّف على تمامية دلالة الرواية وهناك من يريد المناقشة

١-١ الرفاعي: التوصل إلى حقيقة التوسّل: ٣٣٥.

ص: ٧٥

في سندها، ولا يחדش إلّا الآن الرواية تضاد لعقيدته فيقول:

إنّ في سند هذا الحديث رجلاً اسمه روح بن صلاح وقد ضعّفه الجمهور وابن عدى وقال ابن يونس: يروى أحاديث منكراً (١).
أظنّ أنّ الكاتب لم يرجع إلى مصدرها وإنّما تبع تقوّل الآخرين، ونحن نضع أمامك سند الحديث من المصدرين اللذين روى عنهما الحديث ولا ترى فيهما أثراً من روح بن صلاح وإليك السند:

روى الطبراني في المعجم الكبير، قال: حدّثنا طاهر بن عيسى بن قريش المصرى المقرئ: ثنا أصبغ بن الفرّج: ثنا ابن وهب عن أبي سعيد المكي، عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمّه عثمان بن حنيف (٢).
ورواه البيهقي بالسند التالي:

أخبرنا أبو سعبد عبد الملك بن أبي عثمان الزاهد رحمه الله: أنبأنا الإمام أبو بكر محمد بن علي بن الشاشي القفال قال: أنبأنا أبو عروبة: حدّثنا العباس بن الفرّج: حدّثنا إسماعيل بن شبيب: حدّثنا أبي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المدني ... إلخ السند (٣).
وأنت ترى أنّه ليس في طريق الرواية روح بن صلاح بل هو روح بن القاسم والكاتب صرّح بأنّ الرواية رواها الطبراني والبيهقي، وهذا يعرب عن أنّ الكاتب لم يرجع إلى المصدرين وإنّما اعتمد على تقوّل الآخرين.

١-١ الرفاعي: التوصل إلى حقيقة التوسّل: ٢٣٧.

٢-٢ الطبراني: المعجم الكبير: ١٧/٩، وفي المعجم الصغير له «أصبغ بن الفرّج» مكان «أصبغ بن الفرّج».

٣-٣ البيهقي: دلائل النبوة: ١٦٨/٦.

ص: ٧٦

نحن نفترض أنه ورد في سند الرواية روح بن صلاح ولكن ما ذكره من أن الجمهور ضعّفوه أمر لا تصدّقه المعاجم الموجودة فيما بين أيدينا، وإنما ضعّفه ابن عدى وفي الوقت نفسه وثّقه ابن حبان والحاكم.

قال الذهبي: روح بن صلاح المصري يقال له ابن سيّاب ضعّفه ابن عدى، يكتنى أبا الحارث وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال الحاكم: ثقة مأمون (١).

سيرة الأمم في توسلهم بالذوات الطاهرة

إشارة

لم يكن التوسّل بالصالحين والطيبين والمعصومين والمخلصين من عباد الله أمراً جديداً في زمن النبي وبعده بل كان ذلك امتداداً للسيرة الموجودة قبل الإسلام، ونحن نضع أمامك قسماً من هذه التوسلات لتكون على علم بأنّ الفطرة السليمة تدعو الإنسان إلى التوسّل بالموجودات الطاهرة لجلب رحمته تعالى.

١- استسقاء عبد المطلب بالنبي وهو رضيع

إنّ عبد المطلب استسقى بالنبي الأكرم وهو طفل صغير، حتى قال ابن حجر: إنّ أبا طالب يشير بقوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل إلى ما وقع في زمن عبد المطلب حيث استسقى لقريش والنبي معه غلام (٢).

٢- استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام

١- ١ الذهبي: ميزان الاعتدال: ٢/ ٨٥ برقم ٢٨٠١.

٢- ٢ فتح الباري: ٢/ ٣٩٨، ودلائل النبوة: ٢/ ١٢٦.

ص: ٧٧

أخرج ابن عساکر عن أبي عرفه، قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش، يا أبا طالب أفضح الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام يعنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم كأنه شمس دجى تجلت عن سحابة قتما، وحوله أغيلمه، فأخذ النبي أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ إلى الغلام وما في السماء قرعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق واغدوق، وانفجر له الوادي، وأخصب النادي، والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١)

وقد كان استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام، بل استسقاء عبد المطلب به وهو صبي أمراً معروفاً بين العرب، وكان شعر أبي طالب في هذه الواقعة مما يحفظه أكثر الناس.

ويظهر من الروايات أن استسقاء أبي طالب بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان موضع رضا منه صلى الله عليه وآله وسلم فإنه بعدما بعث للرسالة استسقى للناس فجاء المطر وأخصب الوادي فقال النبي: لو كان أبو طالب حياً لقرت عيناه، ومن ينشدنا قوله؟ فقام على عليه السلام وقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (٢)

إن التوسل بالأطفال في الاستسقاء أمر ندب إليه الشارع، قال

١- ١ فتح الباري: ٢/ ٤٩٤، والسيرة الحلبية: ١/ ١١٦.

٢- ٢ إرشاد الساري: ٢/ ٣٣٨.

ص: ٧٨

الدكتور عبد الملك السعدى: «من السنّة أن نُخرج معنا إلى الصحراء الشيوخ والصبيان والبهائم لعلّ الله يسقينا بسببهم» (١). هذا هو الإمام الشافعى يقول فى آداب صلاة الاستسقاء: «وأحب أن يخرج الصبيان، ويتنظفوا للاستسقاء، وكبار النساء، ومن لا هيبة منهنّ، ولا أحبّ خروج ذات الهيبة، ولا أمر بإخراج البهائم» (٢). فما الهدف من إخراج الصبيان والنساء الطاعنات فى السن، إلّا استنزال الرحمة بهم وبقداستهم وطهارتهم؟ كل ذلك يعرب عن أنّ التوسّل بالأبرياء والصلحاء والمعصومين مفتاح استنزال الرحمة وكان المتوسّل يقول: ربّى وسيدى!! الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن فى السن أسيرك فى أرضك، ولكتا الطائفتين أحقّ بالرحمة والمرحمة. فلأجلهم أنزل رحمتك علينا، حتى تعمنا فى ظلهم. إنّ الساقى ربّما يسقى مساحة كبيرة لأجل شجرة واحدة، وفى ظلّها تُسقى الأعشاب وسائر الخضراوات غير المفيدة.

٣- توسّل الخليفة بعَمّ النبي: العباس

روى البخارى فى صحيحه قال: كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه وقال: اللهمّ إنّنا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقيننا، وأنا نتوسّل إليك بعَمّ نبيّنا فاسقنا، قال: فيسقون (٣). والحديث صحيح السند فما ظنك برواية رواها الإمام البخارى، لكن من لا يروقه التوسّل بالذوات الطاهرة أخذ يؤوّل الحديث بأنّ

١-١ عبد الملك السعدى: البدعة فى مفهومها الإسلامى: ٤٩.

٢-٢ ابن إدريس الشافعى: الأم: ١/ ٢٣٠.

٣-٣ البخارى: الصحيح: ٢/ ٣٢ باب صلاة الاستسقاء.

ص: ٧٩

الخليفة توَسَّلَ بدعاء العباس لا بشخصه ومنزلته عند الله. وأضاف على ذلك أنه لو كان قصده ذات العباس لكانت ذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل وأعظم وأقرب إلى الله من ذات العباس، بلا شك ولا ريب، فثبت أن القصد كان الدعاء (١). لا أظن أن أحداً يحمل شيئاً من الإنصاف، يسوِّغ لنفسه أن يفسر الحديث بما ذكره أى التوسَّلَ بالدعاء، لأنَّ في الموضوع نصوصاً تردُّ ذلك وإليك الإشارة إليها:

١- قول الخليفة عند الدعاء ... قال: «اللهم إنا كنا نتوسَّلُ إليك بنبيِّنا فتسقيننا، وإنا نتوسَّلُ إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقنا». وهذا ظاهر في أنَّ الخليفة قام بالدعاء في مقام الاستسقاء، وتوسَّلَ بعمِّ الرسول في دعائه، ولو كان المقصود هو التوسَّلَ بدعائه، كان عليه أن يقول: يا عمِّ رسول الله كنا نطلب الدعاء من الرسول فيسقيننا الله، والآن نطلب منك الدعاء فادع لنا (٢).

٢- روى ابن الأثير كيفية الاستسقاء فقال: استسقى عمر بن الخطاب بالعباس عام الرمادة لما اشتدَّ القحط، فسقاهم الله تعالى به، وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه.

وقال حسان:

سال الإمام وقد تتابع جدبنا فسقى الغمام بعمِّ العباس
عمِّ النبي وصنو والده الذي ورث النبي بذاك دون الناس
أحيى الإله به البلاد فأصبحت مخضرة الأجانب بعد الياس

١-١ التوصل إلى حقيقة التوسَّل: ٢٥٣.

٢-٢ صحيح البخارى، باب صلاة الاستسقاء: ٣٢ / ٢.

ص: ٨٠

ولمَّا سُقِيَ طففوا يتمسحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين (١).
أمعن النظر في قول الخليفة: هذا والله الوسيلة.

٣- ويظهر من شعر حسان أن المستسقى كان هو نفس الخليفة وهو الداعي حيث قال: «سأل الإمام...» وكان العباس وسيلته لاستجابة الدعاء.

قال الدكتور عبد الملك السعدي: «وقد أولوا حديث العباس بأن عمر طلب من العباس أن يدعو لأنهم كانوا إذا أجدبوا طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو لهم فكذا هنا طلب الدعاء من العباس. وهذا التأويل غير مقبول لوجهين:
الوجه الأول: إن السنّة أن يدعو الإمام نفسه والقوم يؤمنون وهذا ما حصل حيث كان الداعي هو سيدنا عمر لا العباس.
الوجه الثاني: إن نص الحديث لا يدل على أن عمر طلب الدعاء من العباس بل كان هو الداعي، بدليل قوله: اللهم إنا كنا نتوسل... إلخ وهذا عين الدعاء ولم يرد أي لفظ يشير إلى أنه قال للعباس: ادع لنا بالسقيا.

ومع ذلك فأى خلل يحصل في الدين أو العقيدة إذا أجرينا النص على ظاهره وتركنا العناد والتعصب؟

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «ويستبين من قصة العباس استحباب الاستسقاء بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة وفيه فضل

١-١ الجزري: أسد الغابة: ٣/ ١١١ طبع مصر.

ص: ٨١

العباس، وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه (١).

وأظنّ أنّ هذه الروايات الصحيحة لا تبقى شكاً ولا ريباً في خلد أحد في جواز التوسّل بالصالحين.

وأما ما ذكره من أنّه لو كان المقصود، التوسّل بذات العباس لكان النبي بذلك أفضل، وأعلم، فيلاحظ عليه أنّ الهدف من إخراج عمّ النبي إلى المصلّي وضمّه إلى الناس هو استئزال الرحمة، فكأنّ المصلّين يقولون ربّنا لو لم نكن مستحقّين لنزول الرحمة، لكن عمّ النبي مستحقّ لها، فأنزل رحمتك إليه لتريحه من أزمة القحط والغلاء وعندئذٍ تعمّ الرحمة لغير العباس، ومن المعلوم أنّ هذا لا يتحقّق إلّا بالتوسّل بإنسان حيّ يكون شريكاً مع الجماعة في المصير وفي هناء العيش ورغده لا مثل النبيّ الراحل الخارج عن الدنيا والنازل في الآخرة، نعم يجوز التوسّل بشخصه أيضاً ولكن لا بهذا الملاك بل بملاك آخر لم يكن مطروحاً للخليفة في المقام. ولو افترضنا صحّة ما يدّعى من أنّ الخليفة توسّل بدعاء عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لكنته عبارةً أخرى عن التوسّل بذات النبيّ لبأ إذ لولا صلته به لما قدّم للدعاء.

١-١ عبد الملك السعدي: البدعة في مفهومها الإسلامي: ٤٦.

٨ التوسّل بحقّ الصالحين وحرمتهم ومنزلتهم

إشارة

إنّ من التوسّلات الرائجة بين المسلمين منذ وقعوا في إطار التعليم الإسلامي، التوسّل بمنازل الصالحين وحقوقهم على الله، وهناك سؤال يطرح نفسه وهو أنّه: كيف يمكن أن يكون لإنسان حقّاً على الله؟ بل الحقوق كلّها لله على العباد، ولكن الإجابة على السؤال واضحة، إذ ليس معنى ذلك أن للعباد أو لبعضهم على الله سبحانه حقّاً ذاتياً يلزم عليه سبحانه الخروج عنه، بل لله سبحانه الحقّ كلّه، فله على الناس حقّ العبادة والطاعة إلى غير ذلك، بل المراد المقام والمنزلة التي منحها سبحانه عباده تكريماً لهم، وليس لأحد على الله حقّ إلّا ما جعله الله سبحانه حقّاً على ذمّته لهم تفضّلاً وتكريماً، قال سبحانه: «وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين» (الروم / ٤٧).

ص: ٨٣

روى مسلم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل تدرى ما حقّ الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنّ حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة قال: يا معاذ قلت: لبيك رسول الله وسعديك: هل تدرى ما حقّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم» (١).

وروى الترمذى وقال: حديث حسن صحيح وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة حقّ على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف» (٢).

فهذان الحديثان قد ثبت بهما وجود حقّ للعباد على الله تعالى، إلّا أنّه حقّ تكريم لا حقّ إلزام وإيجاب. إنّ للإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كلمة قيّمة فى تفسير حقّ العباد على الله وإنّ هذا الحقّ ممّا منح سبحانه تفضلاً على عباده، قال: «فالحقّ أوسع الأشياء فى التواصف وأضيقها فى التناصف لا يجرى لأحد إلّا جرى عليه، ولا يجرى عليه إلّا جرى له، ولو كان لأحد أن يجرى له ولا يجرى عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده، ولعدله فى كل ما جرت صروف قضائه ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسّعاً بما هو من المزيد أهله» (٣). وقد أوضح الإمام معنى حقّ الناس على الله وأنه ليس حقّاً ذاتياً

١-١ الترغيب والترهيب: ٣/٤٣، والنووى على مسلم: ١/٢٣١.

٢-٢ الترغيب والترهيب: ٣/٤٣، والنووى على مسلم: ١/٢٣١.

٣-٣ نهج البلاغة قسم الخطب - الخطبة ٢١٦.

ص: ٨٤

للناس عليه بل كلها تفضل منه سبحانه: وترى مثله في سائر المواضع حيث نرى أنه يقتض من العباد وهو مالك للعباد وما في أيديهم ويقول: «من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له» (البقرة/ ٢٤٥ و الحديد/ ١١).

أبعد هذه التصاريح على أن حق الناس على الله مقتضى تفضله سبحانه وتكرمه على عباده ليس لنا أن نستشكل في تصوير حق الناس على الله؟!!

على أن هذا النوع من التوسل لا يفترق عن التوسل بذات النبي وشخصه فإن المنزلة والمقام مرآة لشخصه وإن حرمة الشخص وكرامته نابعة من كرامة ذاته وفضيلتها، فلو صح التوسل بالأول كما تعرّف عليه من خلال الأحاديث يصح الثاني بدون إشكال، ويدل عليه من الأحاديث ما نذكره:

١- التوسل بحق السائلين

روى عطية بن العوفى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشى هذا، فيأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سيمعةً إنما خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أن تعيدنى من النار وأن تغفر ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، إلأقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك (١).

إن دلالة الحديث واضحة لا يمكن لأحد التشكيك فيه، وسند

١- ابن ماجه: السنن: ١/ ٢٥٦ برقم ٧٧٨، الإمام أحمد: المسند: ٣/ ٢١.

ص: ٨٥

الحديث صحيح ورجاله كلّهم ثقات، نعم اشتمل السند على عطية العوفى فقد وثّقه لفيف من أهل الجرح والتعديل. قال أبو حاتم: يكتب حديثه، وقال ابن معين: صالح، وقال ابن حجر: عطية بن سعيد بن جنادة العوفى الجدلى الكوفى أبو الحسن صدوق، قال ابن عدى: قد روى عن جماعة من الثقات، توفى سنة إحدى عشرة ومائة، قال ابن سعد: خرج عطية مع ابن الأشعث فكتب الحجّاج إلى محمد بن القاسم أن يعرض عليه سبّ على - إلى أن قال: - كان ثقّ وله أحاديث صالحه وكان أبوبكر البرّاز يعدّه فى التشيع روى عن جلّة الناس (١).

نعم، هناك من ضعّفه لا لأنّه غير صدوق بل لأنّه كان يتشيع وليس تشيعه إلّاولاؤه لعلّى وأهل بيته وهل هذا ذنب؟! إنّ لوضع الحديث دوافع خاصّة توجد أكثرها فى أبواب المناقب والمثالب وخصائص البلدان والقبائل، أو فيما يرجع إلى مجال العقائد، كالبدع الموروثة من اليهود والنصارى فى أبواب التجسيم والجهه وصفات الجنة والنار، وأمّا مثل هذا الحديث الذى يعرب بوضوح أنّه كلام إنسان خائف من الله سبحانه ترتعد فرائضه من سماع عذابه فبعيد عن الوضع.

٢- التوسّل بحقّ النبي وبحقّ من سبقه من الأنبياء

روى الطبرانى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنّه لما ماتت فاطمة بنت أسد أم على - رضى الله عنها - دخل عليها رسول الله فجلس عند رأسها

١- ١ ابن حجر: تقريب التهذيب: ٢/ ٢٤ برقم ٢١٦، وتهذيب التهذيب: ٧/ ٢٢٧ برقم ٤١٣.

ص: ٨٦

فقال: رحمك الله يا أمي كنت أمي بعد أمي تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسينني، وتمنعين نفسك طيب الطعام وتطعميني تريدن بذلك وجه الله والدار الآخرة.

ثم أمر أن تغسل الله ثلاثاً ثلاثاً فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكب رسول الله بيده ثم خلع رسول الله قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقها ثم دعا رسول الله أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلماً أسوداً يحفرون فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد حضره رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه وقال: الله الذي يحيى ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين وكبر عليها أربعاً وأدخلها اللحد والعباس وأبو بكر. والاستدلال بالرواية يتوقف على تمامية الرواية سنداً ومضموناً.

أما المضمون فلا مجال للخدش فيه، وأما السند فصحيح، رجاله كلهم ثقة لا يغمز في حق أحد منهم، نعم فيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم وقد عرفت كلام الذهبي فيه (١).

وقد رواه أئمة الحديث وأساتذته وإليك أسماء من وقفنا على روايتهم:

١- رواه الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في المعجم الأوسط ٣٥٦-٣٥٧.

٢- رواه أبو نعيم عن طريق الطبراني في حلية الأولياء ٣ / ١٢١.

١- ١ لاحظ للوقوف على حال روح بن صلاح المصري ميزان الاعتدال: ٢ / ٨٥ برقم ٢٨٠١.

ص: ٨٧

- ٣- رواه الحاكم في مستدرکه ١٠٨ / ٣ وهو لا يروى في هذا الكتاب إلّا الصحيح على شرط الشيخين البخارى ومسلم.
- ٤- رواه ابن عبد البرّ في الاستيعاب على هامش الإصابة ٣٨٢ / ٤.
- ٥- نقله الذهبى فى سير أعلام النبلاء ١١٨ / ٢ برقم ٧.
- ٦- رواه الحافظ نور الدين الهيثمى المتوفى ٧٠٨ فى معجم الزوائد ومنبع الفوائد ٢٥٦ / ٩ - ٢٥٧، وقال: ورواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم.
- ٧- رواه المتقى الهندى فى كنز العمال ١٣ / ٦٣٦ برقم ٣٧٦٠٨.
- هؤلاء الحفاظ نقلوا الحديث فى جوامعهم وصرّحوا بأنّ رجال السند، رجال الصحيح ولو كان هناك شىء ففى روح بن صلاح وقد عرفت توثيقه من أساتذة الفن كابن حبان والحاكم.
- وأما التوسّل بحقّ الأولياء والشخصيات الإلهية ففى أدعية أئمة أهل البيت نماذج من أدعية التوسّل، وهى كثيرة وموزعة فى الصحيفة العلوية (١) ودعاء عرفه (٢) والصحيفة السجادية (٣) وغيرها من كتب الدعاء.
- وفيما يلى نذكر نماذج من تلك الأدعية:
- ١- يقول الإمام علىّ أمير المؤمنين عليه السلام فى دعاء له:
- «... بحقّ محمّد وآل محمّد عليك، وبحقّك العظيم عليهم أن تصلّى عليهم كما أنت أهلهم، وأن تعطينى أفضل ما أعطيت السائلين من

- ١- ١ وهى المجموعة التى تضم بعض أدعية الإمام علىّ أمير المؤمنين عليه السلام جمعها الشيخ عبد الله السماهيجى.
- ٢- ٢ وهو دعاء الإمام الحسين عليه السلام فى عرفات، يوم عرفه.
- ٣- ٣ وهو بعض أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام.

ص: ٨٨

عبادك الماضين من المؤمنين وأفضل ما تعطى الباقيين من المؤمنين ..» (١).

٢- ويقول الإمام سيد الشهداء الحسين عليه السلام في دعاء عرفه:

«... اللهم إنا نتوجّه إليك- في هذه العشيّة التي فرضتها وعظمتها- بمحمد نبيك ورسولك وخيرتك من خلقك».

٣- ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه بمناسبة حلول شهر رمضان:

«... اللهم إنّي أسألك بحقّ هذا الشهر وبحقّ من تعبد فيه» (٢).

إلى هنا تمّت بعض الأدلّة على جواز التوسّل بالشخصيات الطاهرة التي لها منزلة ومكانة، وهناك روايات أخرى في هذا الصدد نتركها لتلّا يطول بنا الكلام فإنّ الغرض الإيجاز لا الإطناب.

٣- توسّل آدم بحقّ النبي

إشارة

قد تعرّفنا على حقيقة حقّ العبد على الله وربما يحتمل أن يراد منه منزلته وجاهه عند الله وكرامته لديه قال نور الدين السمهودي:
 «علم أنّ الاستغاثة والتشفّع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبجاهه وبركته إلى ربّه تعالى من فعل الأنبياء وسير السلف الصالح، واقع في كلّ حال، قبل خلقه صلى الله عليه وآله وسلم وبعد خلقه صلى الله عليه وآله وسلم في حياته الدنيوية ومدّة البرزخ وعرصات القيامة».

«وإذا جاز السؤال بالأعمال- كما في حديث الغار الصحيح وهي مخلوقة- فالسؤال بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أولى. وفي العادة أنّ من له عند شخص قدر فتوسّل به إليه من غيبته فإنّه يجيب إكراماً للمتوسّل به وقد يكون

١- ١ الصحيفة العلوية للسماهيجي: ٥١.

٢- ٢ الصحيفة السجادية: دعاء رقم ٤٤.

ص: ٨٩

ذكر المحبوب أو المعظم سبباً للإجابة» (١).

قال الدكتور عبد الملك السعدي: «إذا قلت: اللهم إني توسّلت إليك بجاه فلان، لنبي أو صالح فهذا أيضاً مما ينبغي أن لا يحصل بجوازه خلاف، لأنّ الجاه ليس له ذات المتوسّل به بل مكانته ومرتبته عند الله وهي حصيلة الأعمال الصالحة لأنّ الله تعالى قال عن موسى - عليه الصلاة والسلام - «وكان عند الله وجاهاً» وقال عن عيسى - عليه الصلاة والسلام - «وجهياً في الدنيا والآخرة» فلا ينكر على من يتوسّل بالجاه إذا كنّا منصفين، لأنّه لا يحتمل نسبة التأثير إلى المتوسّل به إذ ليس هو المقصود بل المتوسّل به جاهه ومكانته عند الله لا غير (٢).

وقال أيضاً في قصة استسقاء الخليفة بالعباس: «إنّ عمر لم يقل واليوم نستسقى بالعباس بن عبد المطلب بل قال: بالعباس عمّ نبيك، فالوجهه حصلت له لأنّه عمّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الميّت وهذا اعتراف بأنّ جاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته ما زال باقياً حتى سرى إلى عمّه العباس (٣).

ونحن نضيف إلى ذلك: أنّه إذا جاز التوسّل بالقرآن - كما مرّ في الفصل الثاني - لمكانته عند الله ومنزلته لديه وهو كلام الله الصامت، فالتوسّل بالنبي الأكرم وهو كلام الله الناطق بطريق أولى.

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اقترب آدم الخطيئة قال: ربّي أسألك بحقّ محمّد لما غفرت لي، فقال الله عزّ وجلّ:

يا آدم، كيف عرفت محمّداً ولم أخلقه؟ قال: لأنك يا ربّ لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش

١-١ السمهودي: وفاء الوفا: ٤ / ١٣٧٢.

٢-٢ عبد الملك السعدي: البدعة في مفهومها الإسلامي الدقيق: ٤٥.

٣-٣ المصدر نفسه: ٤٩.

ص: ٩٠

مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تُصِفْ إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله عز وجل: صدقت يا آدم. إنه لأحب الخلق إليّ وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد لما خلقتك» (١).

يقع الكلام في سند الحديث أولاً وامتته ثانياً.

أمّا الأول: فرجاله ثقاء، نعم وقع الكلام في واحد منهم وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فقد قال البيهقي: وهو ضعيف، ولكن الحاكم صحح الحديث على شرط الشيخين، ولو قلنا بأنه لا يعتمد على تصحيح الحاكم وحده فتكون الرواية مؤيدة، إذ ليس معنى كون الراوى ضعيفاً أن الرواية مكذوبة.

وهناك نكتة أشرنا إليها سابقاً، وهي أن لو كان التوسل بشخص النبي أمراً منكرًا بين المسلمين لما تجرأ الواضع بوضع الحديث الذي يتضمّن ذلك الأمر المنكر، لأنّ هدفه من الوضع إقبال الناس إلى كلامه وتسليمهم بالرواية، وهذا لا يجتمع مع كون المضمون أمراً مخالفاً لما عليه المسلمون في ظرف النقل، وبذلك يُعلم أن الرواية سواء أكانت صحيحة أم لا، تُثبت ما بيناه في جواز التوسل بذات النبي.

نعم هنا شبهات حول الرواية، تجب الإجابة عنها:

الشبهة الأولى

إنّ الحديث يتضمّن الإقسام على الله بمخلوقاته، فالإقسام على

١-١ البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن حسن البيهقي ت ٣٨٤-٤٥٨ ه طبع دار الكتب العلمية بيروت: ٤٨٩ / ٥ ولاحظ الدر المنثور: ١ / ٥٩ ونقله كثير من المفسرين في قصة توبه آدم.

ص: ٩١

اللَّهِ بمحمد وهو مخلوق بل وأشرف المخلوقين لا يجوز، لأنَّ حلف المخلوق على مخلوق حرام، فالحلف على الله بمخلوقاته من باب أولى.

يلاحظ عليه: أن ما استدللَّ به على حرمة الإقسام على الله بمخلوقاته عن طريق أن الحلف بمخلوق على مخلوق حرام، مردود جداً، لأنَّ القرآن مليء بالحلف بمخلوق على المخلوق، قال سبحانه:

«والتين والزيتون* وطور سينين* وهذا البلد الأمين» (التين / ١ - ٣).

«والليل إذا يغشى* والنهار إذا تجلَّى» (الليل / ١ - ٢).

«والفجر* وليال عشر* والشفع والوتر* والليل إذا يسر» (الفجر / ١ - ٤).

ففى هذه الآيات حلف بمخلوق على مخلوق، والحالف هو الله والمحلوف به هو هذه الموجودات والمحلوف عليه هم الناس أو المسلمون قاطبةً.

فلو كان الحلف بمخلوق على مخلوق أمراً خطيراً وبمقربةً من الشرك أو هو نفسه كما يقوله بعض الناس (١).

لما حلف به سبحانه، لأنَّ ماهية العمل إذا كانت ماهيةً شركيةً، فلا يفرق بينه وبين عباده كما أنه إذا كانت ماهيةً الشيء ظلماً وتجاوزاً على البرىء، فالله وعباده فيه سيان، قال الله تعالى: «قل إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تفعلون» (الأعراف / ٢٨).

إنَّ الحلف بهذه العظائم ذات الأسرار إنَّما لأجل أحد الأمرين: إمَّا للدعوة إلى التدبُّر والدقَّة فى صنعها والنواميس السائدة عليها واللطائف

١-١ الرفاعى: التوصل إلى حقيقة التوسل: ٢١٧.

ص: ٩٢

الموجودة فيها، أو لإظهار عظمة المحلوف به وكرامته عند الله كما هو الحال في حلفه سبحانه بحياة النبي، قال: «لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون» (الحجر / ٧٢).

ولا عتب علينا إذا عرضنا المسألة على السنة النبوية، فقد جاءت فيها موارد قد ورد فيها الحلف بخلق على مخلوق، نكتفى بما رواه مسلم في صحيحه، وما ظنك بروايته مسلم في جامعه!

١- روى مسلم في صحيحه:

«جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجراً؟

فقال: أما وأبيك لكتبتأنه: أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل البقاء» (١).

٢- روى مسلم أيضاً:

«وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - من نجد - يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله: خمس صلوات في اليوم والليلة.

فقال: هل على غيرهن؟

قال: لا ... إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان.

فقال: هل على غيره؟

قال: لا ... إلا أن تطوع، وذكر له رسول الله الزكاة.

فقال الرجل: هل على غيرها؟

قال: لا ... إلا أن تطوع.

فأدبر الرجل وهو يقول: لا أزيد على هذا ولا أنقص.

١- ١ صحيح مسلم: ٩٤ / ٣ كتاب الزكاة، باب أفضل الصدقة.

ص: ٩٣

فقال رسول الله: أفلح وأبيه (١) أن صدق.

أو قال: دخل الجنة- وأبيه- أن صدق» (٢).

فإذ بطل الأصل: حرمة الحلف بمخلوق على مخلوق، بطل ما بُني عليه من حرمة الإقسام على الله بحق مخلوقه. إلى هنا تم بيان أن الشبهة شبهة غير صحيحة، وإنما دعا القائل إلى التمسك بها لدعم رأيه المسبق.

الشبهة الثانية

إن الحوار الوارد في الحديث كان بعد اقتران الخطيئة ولكنّه قبل أن يخطأ، علّمه الله الأسماء كلّها، ومن جملة الأسماء اسم محمد وعلم أنّه نبيّ ورسول وأنّه خير الخلق أجمعين، فكان أحرى أن يقول آدم: ربّي إنك أعلمتني به أنّه كذلك لما علّمتني الأسماء كلّها (٣).

نقول على هامش الشبهة: إن ردّ السنّة الشريفة بمثل هذه التشكيكات، جراءة عليها إذ أيّ مانع أن يكون هنا علّمين: علم جزئي وقف عليه عندما فتح عينيه على الحياة في الجنّة، وعلم واسع علّمه سبحانه بعد ذلك الظرف، عندما أراد سبحانه إثبات كرامته على الملائكة.

إنّ هذا النوع من التشكيك يستمد من إثبات الرأى والصمود على العقيدة وإن كان الحديث على خلافها.

١- ١ أي حلفاً بأبيه، فالواو للقسم.

٢- ٢ صحيح مسلم ج ١، باب ما هو الاسلام: ٣٢.

٣- ٣ الرفاعي: التوصل إلى حقيقة التوسّل: ٢١٨.

ص: ٩٤

وهناك نكتتان نتبه عليهما:

الأولى: إنَّ أحاديث التوسُّل وإن كانت تتراوح بين الصحيح والحسن والضعيف، لكن المجموع يعرف عن تضافر المضمون وتواتره، فعند ذلك تسقط المناقشة في اسنادها بعد ملاحظة ورود كمية كبيرة من الأحاديث في هذا المجال، وأنت إذا لاحظت ما مضى من الروايات، وما يوافقك تدعن بتضافر المضمون أو تواتره.

الثانية: نحن نفترض أنَّ الحديث الراهن مجعول موضوع، ولكنَّه يعرب عن أنَّ التوسُّل بالمخلوق والإقسام على الله بمخلوقاته ليس شركاً ولا ذريعةً إليه، بل ولا حراماً.

وذلك لأنَّه لو كان شركاً وذريعةً إليه أو حراماً، لما رواه الثقاتُ واحد عن واحد، وهم أعرف بموازين الشرك ومعاييره، ولما أورده الأكابر من العلماء في المعاجم الحديثة، كاليهقي في دلائل النبوة والحاكم في مستدركه، والسيوطي في تفسيره، والطبراني في المعجم الصغير، وأكابر المفسرين في القرون الغابرة، لأنَّ الشرك أمر بيِّن الغي، فلا معنى ولا مسوغ لنقله بحجة أنَّه رواية. فكل ذلك يعرب عن الفكرة الخاطئة في الحكم على الحلف على الله بمخلوقاته شركاً.

٩ التوسّل بمقام النبي ومنزلته عند الله

إشارة

إنّ هذا النوع من التوسّل ليس قسماً آخر بل يرجع إلى التوسّل بحقهم، بل التحقيق هو: أنّ التوسّل ليس له إلّا قسم واحد وهو توسط قداسة النبي وشخصيته وحرمة عند الله تبارك وتعالى، حتى يستجيب دعاء الإنسان لأجلها، ولو كان لدعاء النبي أثر هو الإجابة فإنّما هو في ظلّ قداسته وشخصيته، وهناك كلمة قيّمة للشيخ محمد الفقى في هذا الصعيد أتى بنصّها:

يمتاز الأنبياء والرسل عن سواهم بمميزات لها خطورتها وعظّم شأنها، ويتمتعون بخصوصيات تجل عن التقدير والتعبير، فهم يتفاوتون عن الخلائق بشتى الخوارق، ويختصّون بأنواع رائعة من المعجزات وأسمى المقامات: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله

ص: ٩٦

ذوالفضل العظيم» (الحديد / ٢١).

والذي وهبهم هذه العطايا وأنعم عليهم بهذه الامتيازات، كتب لهم في سجل الحوائج قضاء ما يطلبون، وما يرجون لأنهم رسله إلى خلقه يلجأ إليهم عند الشدائد، ويستغاث بهم في الملمات وقد أكرم الله كذلك من بين خلقه، رجالاً لا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله، واقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهم أولياؤه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فلهم الحظوة لديه، والقبول عنده بتفضيل عليهم بالاستجابة لدعائهم وقبول الاستغاثة منهم.

وفي جواز التشفع، والاستغاثة بجاهه، تواترت الأحاديث واستفاضت الأخبار، خصوصاً عندما يطول الموقف ويشتد الكرب ويعظم الهول، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى. فتطلب الخلائق في هذا الموقف من الأنبياء إغاثنهم، والاستشفاع بهم، فيحيلونهم كل بدوره إلى خير شفيع، وأعظم مغيث فيقصدون كعبة الشفاعة وقبله الإغاثة، فيستجيب لرغباتهم ويسارع لإغاثنهم وإنقاذهم ويهّم لمرضاتهم بما عهد فيه من فضل، وما عرف عنه من كرم (١).

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله: أنا سيد الناس يوم القيامة. هل تدرون بيم ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد ويسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنوا الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول

١-١ محمد الفقى من علماء الأزهر الشريف: التوسّل والزيارة: ١٦١.

ص: ٩٧

الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟

فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك إشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، إذهبوا إلى غيري إذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سمّاك الله عبداً شكوراً إشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، إذهبوا إلى غيري إذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض إشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله (وإنّي قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهنّ أبو حيان (١) في الحديث)، نفسي نفسي نفسي، إذهبوا إلى غيري إذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس إشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنّي قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، إذهبوا

١-١ ما تفرد به أبو حيان مخالف للكتاب والعقل فلا عبرة به.

ص: ٩٨

إلى غيرى إذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد صبياً إشفع لنا ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله (ولم يذكر ذنباً)، نفسى نفسى، إذهبوا إلى غيرى إذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فيأتون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر إشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمّتى يا ربّ أمّتى يا ربّ، فيقال: يا محمد أدخل من أمّتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحмира وكما بين مكة وبصرى (١).

فالحديث يدلّ على جواز التوسّل بالمقام والمنزلة لقولهم: يا من أنت رسول وخاتم الأنبياء، كما أنّ فيه دلالة على طلب الشفاعة منه لقولهم إشفع لنا إلى ربك.

إنّ التوسّل بالأنبياء والأولياء ليس بملاك جسمانيتهم فإنهم وغيرهم فى ذلك المجال سواسية، وإنّما يتوسّل بهم بروحانيتهم العالية

١- البخارى: الصحيح: ٨٤/٦-٨٥، صحيح مسلم: ١/١٢٧-١٣٠، مسند أحمد: ٢/٤١٢.

ص: ٩٩

وهي محفوظة في حال الحياة وبعد الارتحال إلى البرزخ وإلى الآخرة.

فالتفريق في التوسل بين الحياة والممات ينشأ من نظرة مادية تعطى الأصالة للجسم والمادة ولا تقيم للمعنى والروحانية وزناً ولا قيمةً. فالنبي الأكرم مدار الفضائل والكمالات وهو يتمتع بأروع الكرامات وكلها ترجع إلى روحانيته ومعنويته القائمة المحفوظة في جميع الحالات.

فما هذا التفريق بين الحياة المادية والبرزخية والآخرية؟

فمن اتخذ الأنبياء والأولياء وغيرهم ممن باتوا لربهم سجداً وقياماً، أسباباً حال حياتهم أو بعد مماتهم، ووسائل لقضاء حوائجهم ووسائل لجلب الخير ودفع الشر، لم يحددوا عمّا تهدف إليه الشريعة ولم يتجاوزوا الخط المشروع ولم يتعدوا مقصود الرسالة النبوية وغاياتها.

فالأسباب لا يمكن إنكارها، ولا يعقل تجاهلها، ولا يتأتى وجودها لأنه تعالى هو الذي خلق الأسباب والمسببات ورتب النتائج على المقدمات فمن تمسك بالأسباب فقد تمسك بما أمر الله سبحانه.

خاتمة المطاف

إشارة

ص: ١٠٠

قد تعرّفت على أدلّه جواز التوسّل بالأنبياء والصالحين، بأقسامه المختلفة، وربما تثار الشبهة حول التوسّل ببعض الآيات، فإكمال البحث يقتضى توضيح بعض هذه الآيات التي وقعت ذريعاً للشبهة لأجل التفسير بالرأى، فحاشا أن يكون بين الآيات تهاوت واختلاف بأن يدل بعضها على جواز التوسّل وبعضها الآخر على المنع، وحاشا أن تكون السنّة المتواترة على جواز التوسّل مضادة للقرآن الكريم وإنما استغلّهما القائل إذ ولج في تفسير الآية من غير بابها وإليك بعض هذه الآيات:

الآية الأولى

قوله سبحانه: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا» (الإسراء / ٥٦-٥٧).

وتوضيح الآيتين على وجه يقلع الشبهة من رأس:

تردّ الآيتان على الذين كانوا يعبدون الوسائط والوسائل بتخيّل أنّهم يستطيعون كشف الضّرّ وتحويله عنهم، وأنهم يملكون ذلك، فلأجل تلك الغاية كانوا يعبدون الجنّ والملائكة وغيرهم لتلك الغاية، وكانوا يسمّونهم آلهة، والآيتان تحتجّ على نفى إلهيتهم بحجّة أنّ الإله

ص: ١٠١

المستحقّ للعبادة يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضرر، إذ هو لازم ربوبية الربّ، لكن الذين يدعون هؤلاء ويعبدونهم لا يستطيعون ذلك، أى كشف ضُرِّ مسهم أو تحويله عنهم إلى غيرهم، فعند ذلك تبطل ربوبيتهم فلا يستحقّون العبادة، وإلى ذلك المعنى يشير سبحانه بقوله: «قل ادعو الذين زعمتهم من دونه فلا يملكون كشف الضرّ عنكم ولا تحويلاً».

هذا هو الدليل الأوّل الذى أبطل به سبحانه إلهيتهم وربوبيتهم واستحقاقهم للعبادة.

ثم إنّه سبحانه عاد إلى الاحتجاج عليهم بدليل آخر وحاصله: أنّ الذين تعبدونهم وتزعمون أنّهم يستطيعون كشف الضرّ وتحويله- نفس هؤلاء- يدعون الله تعالى ويطلبون القربة إليه بفعل الخيرات «حتى» أنّ الأقرب منهم يتغى الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب، والجميع يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، إنّ عذاب ربّك كان محذوراً، فإذا كان الحال كذلك فاللازم عليكم ترك عبادة هؤلاء ورفضهم الإقبال على عبادة الله تبارك وتعالى وإلى ذلك يشير قوله سبحانه فى الآية الثانية:

«أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربّهم الوسيلة أيّهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إنّ عذاب ربّك كان محذوراً».

فأشار إليه «بأولئك» إلى آلهتهم، وبقوله: «الذين يدعون» إلى عبادتهم لهم، ثم وصف آلهتهم بالجمل التالى وهى، هؤلاء الآلهة:

١- يبتغون إلى ربّهم الوسيلة.

٢- الذى هو أقربهم إلى الله يبغي الوسيلة فكيف بغير الأقرب.

ص: ١٠٢

٣- والجميع الأقرب وغير الأقرب، «يرجون رحمته ويخافون عذابه إنَّ عذاب ربك كان محذوراً» فالآيتان بصدد إبطال إلهية هؤلاء وعدم استحقاقهم للعبادة لعدم ثبوت ملاك العبادة فيهم. فأى صلة للآيتين بنفى التوسل، أى التوسل بعباد صالحين لا يعتقد المتوسل فيهم شيئاً من الربوبية ولا استطاعة لكشف الضر وتحويله، بل هم عباد صالحون تستجاب دعوتهم، فلو كانت الآية عامة لصورة التوسل بدعائهم يلزم التهافت بينها وبين قوله سبحانه: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» (النساء / ٦٤). الإنسان المصر على عقيدته الذى لا يريد أن يعدل عنها أمام الآيات البينات ليس له إلا إخراج الآية عن مفادها وتفسيرها لأجل رأى مسبق، فشتان بين مفاد الآية، أى عبادة الوسائط بزعم أنهم آلهة يستطيعون لكشف الضر وتحويله وقضاء الحاجة، وبين توسيط الشخصيات الصالحين بما هم عباد الله، بما لهم منزلة وكرامة عند الله حتى يدعوا للمتوسل أو يستجيب الله تعالى دعاءه ولأجل قربهم وكرامتهم عنده، فالآية ناظرة إلى المعنى الأول دون الثانى.

الآية الثانية

قال سبحانه: «إياك نعبد وإياك نستعين». ربما يقال: إنَّ التوسل نوع من الاستعانة بغير الله سبحانه، وهو ينافى الحصر الموجود فى قوله: «إياك نستعين». والجواب: أن الاستعانة بالناس والاستغاثة بهم لا يتنافى مع

ص: ١٠٣

حصر الاستعانة بالله في قوله: «إياك نعبد وإياك نستعين» لأن الاستعانة بهم (باعتماد أنه سبحانه هو الذى جهزهم بالقوة، فلو قاموا بعمل فإنما يقومون به بحوله وقوته سبحانه) يؤكد حصر الاستعانة فيه عز وجل.

وإنما ينافى الحصر لو اعتقدنا بأن للأسباب والوسائط أصالة واستقلالاً فى العمل والتصرف، وهذا ما لا يليق أن ينسب إلى موحد أبداً. إن القرآن حافل بحصر أفعال بالله سبحانه، فينسبها إليه فى صورة الحصر، ولكنه يعود فينسبها فى نفس الوقت إلى غيره وليس هناك تهاوت وتضاد بين الإسنادين والنسبتين لأن المحصور فى الله سبحانه غير المنسوب إلى غيره.

يقول سبحانه: «إياك نستعين» وفى الوقت نفسه يقول عز وجل: «استعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» (البقرة/ ٤٥). قال الدكتور عبد الملك السعدى: أما من يمنع ذلك ويستدل بقوله: «إياك نعبد وإياك نستعين» بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لابن عباس: «وإذا استعنت فاستعن بالله» وبقوله: «لا يستغاث بى وإنما المغيث هو الله».

فالجواب عنه: أن الإعانة تكون حقيقية ومجازية، فالمعنى الحقيقى هو الله وطلب الإعانة من غيره مجاز، ولولا إمداد الله له بالعون والقوة لما استطاع أن يعينك، فالاستعانة بالإنسان هى استعانة بالقوة والملكة والسلطة التى منحه الله إياه إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، فالآية حصرت الاستعانة الحقيقية بالله تعالى، وكذا وصية النبى صلى الله عليه وآله وسلم لابن

ص: ١٠٤

عباس من هذا القبيل، والآية والحديث فيهما توجيه للعبد، أن لا ينسب إلى المخلوق حولاً ولا قوة، ولو طلب العون المجازى منه وإذا لم توجه الآية والحديث هذا التوجيه فإنه ستتعارض مع قوله تعالى: «وتعاونوا على البر والتقوى» وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه».

أما الحديث الأخير فإنه ضعيف، لأن في سننه ابن لهيعة فلا يقاوم الأحاديث الصحاح ولا مدلول الآية (١). والأولى أن يعبر عن الحقيقي والمجازى بالاستقلال وعدم الاستقلال، بالأصالة والتبع، فالله سبحانه يملك كل شيء استقلالاً وأصالة والعبد يملك العون والقدرة، ولكن بإذنه ومشئته في كل آن، فهو الذي أراد أن يقدر العبد ويستطيع على إقامة الفرائض والسنن. فالعون القائم بالذات غير المفاض فهو عون الله سبحانه، وأما العون المفاض المحدود فهو عون العبد، فلو استعان بالعبد بما أنه معين مستقل بالأصالة فهو مشرك، فجعل المخلوق مكان الخالق ولو طلب منه بما أنه أقدر الله عليه وأجاز له أن يعين أخاه، فقد طلب شيئاً مشروعاً وهو نفس التوحيد.

هذا من غير فرق بين من يستعين بالأحياء وبالأموات، غاية الأمر إذا كان الميت غير مستطيع على الإعانة تكون الاستعانة لغواً، وإن كان قادراً فتكون الاستعانة عقلانية، فالحياة والموت ليسا ملاكاً للتوحيد والشرك، بل ملاكاً للجدوى وعدمها.

١-١ الدكتور عبد الملك السعدى: البدعة في مفهومها الإسلامى الدقيق: ٥٣-٥٤.

ص: ١٠٥

١٠ التوسّل بالنبي متواتر إجمالاً**إشارة**

إنّ هناك لفيماً من التوسّلات المبوّثّة في كتب التاريخ والتفسير والسيره وغيرها وهي بأجمعها تدلّ على جريان السيره بالتوسّل إلى الرسول، وهي تدل على جواز التوسّل بدعاء الرسول أو بذاته أو بمنزلته حياً وميتاً، والكل يعرب عن كونه أمراً رائجاً بين المسلمين غير منكر، وأنما حدث الإنكار في الآونة الأخيرة أي بعد سبعة قرون متكاملة فلم ينبس فيها أحد بينت شفه بالإنكار أبداً. نعم هناك لفيف يمنعون التوسّل، ولكنهم لمّا وقعوا أمام هذه الروايات الهائلة الدالة على جواز التوسّل بدعائه أو بذاته وشخصه حياً وميتاً، حاولوا أن يناقشوا في أسناد هذه الروايات، غافلين عن أنّ هذه الروايات مستفيضة، بل متواترة في مفادها الإجمالية أي جواز التوسّل

ص: ١٠٦

بنفسه، ولا وجه للمناقشة في اسنادها وقال ابن تيمية: «والمراسيل إذا تعددت طرقها وخلت عن المودئة قصداً أو الاتفاق بغير قصد كانت صحيحة قطعاً» (١).

وأنت إذا لاحظت ما سبق من الصحاح والحسان وما ذكره الآن تدعن على تواتره الإجمالى:

١- توّسل الأعرابي بالنبي نفسه

إشارة

روى جمع من المحدثين أنّ أعرابياً دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: لقد أتيناك وما لنا بغير يئط، ولا صغير يغط، ثم أنشأ يقول:

أتيناك والعذراء تدمى لبانها وقد شغلت أم الصبى عن الطفل

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العامى والعلهز الفسل

وليس لنا إلّا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلّا إلى الرسل؟

فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر، فرفع يديه وقال: اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً... فما ردّ النبي يديه

حتى ألفت السماء... ثم قال: لله درّ أبى طالب، لو كان حياً لقرّت عيناه. من ينشدنا قوله؟

فقام على بن أبى طالب عليهما السلام وقال: كأنك تريد يا رسول الله قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطوف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفواضل

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أجل.

فأنشد على عليه السلام أبياتاً من القصيدة، والرسول يستغفر لأبى طالب على المنبر، ثم قام رجل من كنانة وأنشد يقول:

ص: ١٠٧

لك الحمد والحمد ممن شكر سقينا بوجه النبي المطر (١)

دلالة الحديث:

إن الإمعان في مجموع الرواية يعرب عن أن الأعرابي توّسل بشخص النبي وطلب منه قضاء حاجته، والدليل على ذلك الأمور التالية:

أ- أتيناك وما لنا بغير ينط.

ب- أتيناك والعدراء تدمى لبانها.

ج- وليس لنا إلّا إليك فرارنا.

د- وأين فرار الناس إلّا إلى الرسل؟

هـ- إنشاء على بن أبي طالب شعر والده، وهو يتضمّن قوله:
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه.

٢- شعر صفيّة في رثاء النبي

أنشدت صفيّة بنت عبد المطلب عمّة النبي قصيدة بعد وفاة النبي في رثائه صلى الله عليه وآله وسلم وجاء فيها قولها:

ألا يا رسول الله أنت رجأؤنا وكنت بنا بزاً ولم تك جافيا
وكنت بنا بزاً رؤوفاً نبيّنا ليبيك عليك اليوم من كان باكيا (٢)
إننا نستنتج من هذه المقطوعة الشعرية- التي أنشدت على مسمع

١- ١ السيرة الحلبية: ١/ ١١٦، لاحظ فتح الباري: ٢/ ٤٩٤، والقصيدة مذكورة في السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٧٢- ٢٨٠.

٢- ٢ ذخائر العقبى للحافظ الطبري: ٢٥٢، مجمع الزوائد: ٩/ ٣٦، ونشير إلى أن جملة: «أنت رجأؤنا» في الشطر الأوّل جاءت في هذا المصدر هكذا كنت رجأؤنا.

ص: ١٠٨

من الصحابة وسجلها المؤرخون وأصحاب السير - أمرين:

الأول: إن مخاطبة الأرواح - وبالخصوص مخاطبة رسول الله بعد وفاته - كان أمراً جائزاً وجارياً وقولها: «يا رسول الله» لم يكن لغواً ولا شركاً.

الثاني: إن قولها: «أنت رجأؤنا» يدل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو أمل المجتمع الإسلامي في كل العصور والأحوال، ولم تنقطع الروابط والعلاقات معه صلى الله عليه وآله وسلم حتى بعد وفاته.

٣- خبر العتيق

روى الإمام القسطلاني في المواهب اللدنية: وقف أعرابي على قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم وقال: اللهم إنك أمرت بعق العبيد وهذا حبيبي وأنا عبدك فأعتقني من النار على قبر حبيبي، فهتف به هاتف: يا هذا سألت العتق لك وحدك؟ هلا سألت العتق لجميع المؤمنين إذ ذهب فقد أعتقتك.

ثم أنشد القسطلاني البيتين المشهورين وهما:

إن الملوك إذا شابت عبيدهم في رقهم أعتقوهم عتق أحرار

وأنت يا سيدي أولى بذا، كرماً قد شئت في الرق فاعتقني من النار (١)

٤- خبر حاتم الأصم

نقل في المواهب عن الحسن البصري، قال: وقف حاتم الأصم على قبره صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رب إننا زرنا قبر نبيك صلى الله عليه وآله وسلم فلا تردنا خائبين،

١-١ القسطلاني: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: ٤/ ٥٨٤ ط. دار الكتب الإسلامية.

ص: ١٠٩

فنودى يا هذا ما أذنا لك في زيارة قبر حبيينا إلأوقد قبلناك فارجع أنت ومن معك من الزوّار مغفوراً لكم. ثم ذكر في المواهب كثيراً من البركات التي حصلت له ببركة توّسّله بالنبي (١).

٥- اللهم ربّ جبرئيل وميكائيل

روى النووى أنّ النبي أمر أن يقول العبد بعد ركعتين الفجر: اللهم ربّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد أجزني من النار (أو) أعوذ بك من النار. وخصّ هؤلاء بالذكر للتوسّل بهم في قبول الدعاء وإلّا فهو سبحانه ربّ جميع المخلوقات. والحديث صحّحه الحاكم، وقال ابن حجر: إنّه حسن (٢).

٦- حديث السؤال بالأنبياء

يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جدّه أنّ أبا بكر الصديق أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّي أتعلّم القرآن وينفلت منّي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: اللهم إنّي أسألك بمحمد نبيك، وإبراهيم خليلك، وبموسى نجيك، وعيسى روحك وكلمتك، وبتوراة موسى، وانجيل عيسى، وفرقان محمد وبكل وحى أوحيته وقضاء قضيته...». قال ابن تيمية: هذا الحديث ذكره زرين بن معاوية البدرى في جامعه. ونقله ابن الأثير في جامع الأصول، ولم يعزه لا هذا، ولا هذا إلى

١-١ المصدر نفسه.

٢-٢ زيني دحلان: ٣٠، والرافعي: التوصل إلى حقيقة التوسّل: ٣٠٦ عن كتاب الأذكار للنووى.

ص: ١١٠

كتاب من كتب المسلمين، لكنّه رواه من صنّف في عمل يوم وليلة كابن السنّي، وأبى نعيم. وقد رواه أبو الشيخ الاصبهاني في كتاب «فضائل الأعمال» (١).

٧- حديث دعاء حفظ القرآن

ذكر موسى بن عبد الرحمن الصنعاني صاحب التفسير باسناده عن ابن عباس مرفوعاً، أنّه قال: من سرّه أن يوعيه الله القرآن فليكتب هذا الدعاء: «... اللهم إني أسألك بأنك مسؤول لم يسأل مثلك ولا يسأل وأسألك بمحمد نبيك، وإبراهيم خليلك، وبموسى نبيك، وعيسى روحك وكلمتك ووجهك ...» (٢).

٨- حديث استفتاح اليهود على المشركين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم

يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان ... فكلما التقوا هزمت يهود، فعادت بهذا الدعاء: «اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلانصرتنا عليهم، فكانوا إذا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان ... فلما بُعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم كفروا به فأنزل الله تعالى: «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ...» (البقرة/ ٨٩) (٣).

١-١ الرفاعي: التوصل إلى حقيقة التوصل: ٣١٠.

٢-٢ المصدر نفسه.

٣-٣ المصدر نفسه، نقلًا عن الحاكم في المستدرک على الصحيحين. ولم نعثر عليه فيه بعد الفحص الأكيد.

ص: ١١١

٩- توّسل الشافعي بآل البيت

ذكر ابن حجر المكي في كتابه المسمى ب «الصواعق المحرقة» من أشعار الإمام الشافعي هذين البيتين:
 آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي
 أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي (١)

١٠- استسقاء بلال بن حوث**إشارة**

روى البيهقي وابن أبي شيبه أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر رضي الله عنه، فجاء بلال بن الحوث رضي الله عنه وكان من أصحاب النبي إلى قبر النبي، وقالوا: يا رسول الله استسقى لأمتك فأنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وأخبره بأنهم سيسقون (٢) فيه النداء بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم والخطاب بالطلب منه أن يستسقى لأُمَّته. ومراده من الاستسقاء بقرينة الحال دعاؤه سبحانه أن ينزل رحمته إليهم لا أن يصلّي صلاة الاستسقاء وليس العبرة بنوم بلال، وإنما العبرة بعمل ذلك الصحابي الذي كان في بعض غزواته (٣).
 قال زيني دحلان: ومن تتبع أذكار السلف والخلف وأدعيتهم وأورادهم وجد فيها شيئاً كثيراً في التوسّل ولم ينكر عليهم أحد في ذلك حتى جاء هؤلاء المنكرون، ولو تتبعنا من أكابر الأُمّة في التوسّل لامتلأت بذلك الصحف، وفيما ذكر كفاية ومقنع لمن كان بمرأى من

١- ابن حجر: الصواعق المحرقة: ١٨٠، ط. مكتبة القاهرة، تحقيق عبد الوهاب.

٢- زيني دحلان: الدرر السنية: ١٨.

٣- جمال الدين المزي: ٢٨٢/٤، ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير: ٣/٣٠١-٣٠٣.

ص: ١١٢

التوفيق وسماع (١).

تلك عشرة كاملة

ونلت نظر القارئ بأن الاحتجاج بهذه الأحاديث العشرة الكاملة وما قبلها مبنى على أمرين أُشير إليهما فيما سبق:

١- إن أصل التوسل إذا كان شركاً أو محرماً، لم يتجرأ الوضاع على أن يجعله أساساً لما يريده من الوضع والدس، فهذا يعرب عن أن أساس (جواز التوسل) كان أمراً مسلماً فبنى عليه ما بنى من القصص والروايات لو افترضنا عدم صحتها، لكن أنى لنا، هذه الفرية.

٢- إن مجموع الروايات العشرة وما تقدم عليها من الصحاح والحسان يثبت كون التوسل بالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بعمامة صورته أمر أستفيض جوازه من النبي والصحابة بل تواتر إجمالاً وإن كانت الخصوصيات غير متواترة.

وليس المورد ممياً يقبل الجرح والدقة في اسناد الروايات، إذ ليس المقصود الإذعان بصحة كل ما جاء فيها من الخصوصيات وإنما المقصود ثبوت جواز التوسل بصورة عامة ببركة هذه الحكايات والقصص وإن كان بعضها ضعيف السند عند البعض وصحيحاً عند آخر.

ومن أراد ردّ هذه الروايات بضعف السند، فقد ولج البيت من غير باب.

ما أُلّف حول التوسل بقلم علماء الإسلام

١- ١ زيني دحلان: الدرر السنية: ٣١.

ص: ١١٣

لقد أُلّف حول التوسّل بخير الأنام وأولياء الله الكرام كتباً ورسائل قام بتأليفها لفيف من علماء الإسلام وأكابرهم الذين يعتمد على أقوالهم وآرائهم فأحببت أن أنوّه ببعض أسمائها حتى يقف القارئ عليها، فلو أراد التوسّع فعليه الرجوع إليها:

١- كتاب الوفاء في فضائل المصطفى: لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، وقد أفرد باباً حول التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وباباً حول الاستشفاء بغيره الشريف.

٢- مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام: تأليف محمد بن نعمان المالكي المتوفى سنة ٦٧٣ هـ، وقد نقل السمهودي في كتاب وفاء الوفا، باب التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الكتاب نقلًا كثيراً.

٣- البيان والاختصار: لابن داود المالكي الشاذلي، وقد ذكر فيه توسّل العلماء والصلحاء بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في المحن والأزمات.

٤- شفاء السقام: لتقى الدين السبكي المتوفى عام ٧٥٦ هـ، وقد تحدّث عن التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بشكل تحليلي رائع من ص ١٢٠-١٣٣.

٥- وفاء الوفا لأخبار دار المصطفى: للسيد نور الدين السمهودي المتوفى سنة ٩١١ هـ، وقد بحث عن التوسّل بحثاً واسعاً في الجزء الرابع من ص ٤١٣-٤١٩.

٦- المواهب اللدنية: لأبي العباس القسطلاني المتوفى سنة ٩٣٢ هـ، وسيوافيك كلامه في التوسّل.

ص: ١١٤

- ٧- شرح المواهب اللدنية: للزرقاني المالكي المصري المتوفى سنة ١١٢٢ هـ، وفي الجزء الثامن، ص ٣١٧.
- ٨- صلح الإخوان: للخالدي البغدادي المتوفى سنة ١٢٩٩ هـ، وله أيضاً رسالة خاصة في الردّ على الآلوسى حول موضوع التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد طبعت الرسالة في سنة ١٣٠٦ هـ.
- ٩- كنز المطالب: للعدوى الحمزاوى المتوفى سنة ١٣٠٣ هـ.
- ١٠- فرقان القرآن: للعزامى الشافعى القضاعى، وقد طبع هذا الكتاب مع كتاب الأسماء والصفات للبيهقى في ١٤٠ صفحة.
- أيها القارئ الكريم: إنّ مطالعة هذه الكتب - وخاصة تلك التي تحدّثت بالتفصيل عن التوسّل، ويأتى كتاب صلح الإخوان وفرقان القرآن في طليعتها - أنّ مطالعة هذه الكتب يثبت جريان سيره المسلمين - في كلّ عصر ومصر - على التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولنتصر بهذا المقدار وفيه كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد.
- ***

كلام لابن حجر حول التوسّل

قال: وينبغي للزائر أن يكثر من الدعاء والتضرّع والاستغاثة والتشفع والتوسّل به صلى الله عليه وآله وسلم فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه.

واعلم أنّ الاستغاثة هي طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث منه، فلا فرق بين أن يعبر بلفظ: الاستغاثة أو التوسّل أو التشفع أو التجوّه أو التوجّه، لأنّهما من الجاه

ص: ١١٥

والوجهة، ومعناه: علو القدر والمنزلة.

وقد يتوسل بصاحب الجاه إلى من هو أعلى منه، ثم إن كلاً من الاستغاثة والتوسل والتشفع والتوجه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم كما ذكره في «تحقيق النصر» و«مصباح الظلام» واقع في كل حال، قبل خلقه وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة.

فأما الحالة الأولى فحسبك ما قدمته في المقصد الأول من استشفاع آدم عليه السلام به لما أُخرج من الجنة، وقول الله تعالى له: يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السماوات والأرض لشققناك.

وفي حديث عمر بن الخطاب عند الحاكم والبيهقي وغيرهما:

وإن سألتني بحقه فقد غفرت لك. ويرحم الله ابن جابر حيث قال:

به قد أجاب الله آدم إذ دعا ونجا في بطن السفينة نوح

وما ضرت النار الخليل لنوره ومن أجله نال الفداء ذبيح

وصح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب، أسألك بحق محمد لما غفرت لي، قال الله تعالى: يا آدم، وكيف عرفت محمداً ولم أخلقك؟ قال: يا رب إنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت قوائم العرش مكتوباً عليها لا إله إلا الله، محمداً رسول الله، فعرفت أنك لا تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، وإذ سألتني بحقه، فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك». ذكره الطبري، وزاد فيه: «وهو آخر الأنبياء من ذريتك» (١).

ص: ١١٦

وأما التوسّل بعد خلقه في مدّة حياته، فمن ذلك الاستغاثّة به صلى الله عليه وآله وسلم عند القحط وعدم الأمطار، وكذلك الاستغاثّة به من الجوع ونحو ذلك ممّا ذكرته في مقصد المعجزات ومقصد العبادات في الاستسقاء، ومن ذلك استغاثّة ذوى العاهات به، وحسبك ما رواه النسائي والترمذى عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك في حاجتي لتقضى، اللهم شفّعه فيّ، وصحّحه البيهقي وزاد: فقام وقد أبصر.

وأما التوسّل به صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته في البرزخ وهو أكثر من أن يحصى أو يدرك باستقصاء وفي كتاب «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» للشيخ أبي عبد الله بن النعمان طُرف من ذلك.

إنّ لابن حجر العسقلاني مقاماً شامخاً عند أهل الحديث، لا يعدل عنه إلى غيره إلّا بدليل وهو خريت فن الحديث وأستاذة فكلامه يعرب عن تسليمه صحه ما نقل من الأحاديث وتقدّم جميعها في الفصول السابقة.

*** أخي العزيز لقد عالجت مسألة التوسّل على ضوء الكتاب والسنة ولم أخرج عنهما قدر شعرة، وإن ذكرت من غيرهما شيئاً فإنّما هو لأجل إيضاح ما ورد في الكتاب والسنة لقد ذكرت ما ذكرت من النصوص بعد التأكد من مصادرها ولم أعتمد على قول الآخرين إلّا في موارد نادرة، كما صنّت قلمي ويراعى عمّا لا يناسب أدب الكتاب الإسلامي فإن وجد

ص: ١١٧

فى هذه الرسالة شىء يتضمّن قسوة فى الكلام فإنما هو عن قوة العارض ووضوح الحجة والله سبحانه من وراء القصد.

جعفر السبحانى

٨ رمضان المبارك - عام ١٤١٥ هـ

ص: ١١٨

فهرس المواضيع

- ١- التوحيد في العبادة أساس دعوة الأنبياء ١٢
- ٢- البدعة في الدين ١٣
- التوسل لغة واصطلاحاً ١٧
- التوسلات المشروعة:
- (١) التوسل بأسمائه وصفاته ٢١
- (٢) التوسل بالقرآن الكريم ٢٥
- (٣) التوسل بالأعمال الصالحة ٢٧
- (٤) التوسل بدعاء الرسول الأكرم في حياته ٣٢
- (٥) التوسل بدعاء الأخ المؤمن ٣٩
- (٦) التوسل بدعاء النبي في حياته البرزخية ٤٢
- الأول: حياة الأنبياء والأولياء بعد انتقالهم إلى البرزخ ٤٣
- الثاني: الصلة بين الحياة الدنيوية والحياة البرزخية ٤٧
- ١- النبي صالح يخاطب قومه الهالكين ٤٧
- ٢- مخاطبة النبي شعيب قومه الهالكين ٤٨

ص: ١١٩

الأحاديث وإمكان الارتباط بالأرواح ٤٩

٣- أمر النبي بالتكلم مع الأنبياء ٤٩

الثالث: سيرة السلف الصالح في التوسل بدعاء النبي بعد رحيله ٥٢

شبهات لا بد من الإجابة عليها ٥٩

الشبهة الأولى البرزخ مانع من الاتصال ٥٩

الشبهة الثانية: امتناع اسماع الموتى ٦١

الشبهة الثالثة: انقطاع عمل الإنسان ٦٥

التلون في الاستدلال ٦٦

(٧) التوسل بالأنبياء والصالحين أنفسهم ٦٧

١- توسل الضرير بنبي الرحمة ٦٨

إجابة على سؤال ٧١

التوسل بذات النبي بعد رحيله ٧٢

مناقشة في سند الرواية ٧٥

سيرة الأمم في توسلهم بالذوات الطاهرة ٧٦

١- استسقاء عبد المطلب بالنبي وهو رضيع ٧٦

٢- استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام ٧٧

٣- توسل الخليفة بعن النبي: العباس ٧٨

(٨) التوسل بحق الصالحين وحرمتهم ومنزلتهم ٨٢

١- التوسل بحق السائلين ٨٤

٢- التوسل بحق النبي وبحق من سبقه من الأنبياء ٨٥

٣- توسل آدم بحق النبي ٨٨

الشبهة الأولى ٩٠

ص: ١٢٠

الشبهه الثانية ٩٣

(٩) التوسل بمقام النبي ومنزلته عند الله ٩٥

خاتمة المطاف ٩٩

آيتان على منضدة التفسير ٩٩

الآية الأولى ١٠٠

الآية الثانية ١٠٢

(١٠) التوسل بالنبي متواتر إجمالاً ١٠٥

١- توسل الأعرابي بالنبي نفسه ١٠٥

دلالة الحديث ١٠٦

٢- شعر صفيه في رثاء النبي ١٠٧

٣- خبر العتيق ١٠٧

٤- خبر حاتم الأصم ١٠٨

٥- اللهم رب جبرئيل وميكائيل ١٠٨

٦- حديث السؤال بالأنبياء ١٠٩

٧- حديث دعاء حفظ القرآن ١٠٩

٨- حديث استفتاح اليهود على المشركين بمحمد (ص) ١١٠

٩- توسل الشافعي بآل البيت ١١٠

١٠- استسقاء بلال بن حرث ١١٠

تلك عشرة كاملة ١١١

ما أُلّف حول التوسل بقلم علماء الإسلام ١١٢

كلام لابن حجر حول التوسل ١١٤

فهرس المواضيع ١١٨

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
جاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).
قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرًا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجلَ الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.
مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعيدته جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسايل الديتية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافته على أساس معارف القرآن و اهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...
- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.
- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الديتية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "پنج رمضان" ومفترق "وفائي" / "بنايه" القائمية

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ والله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

